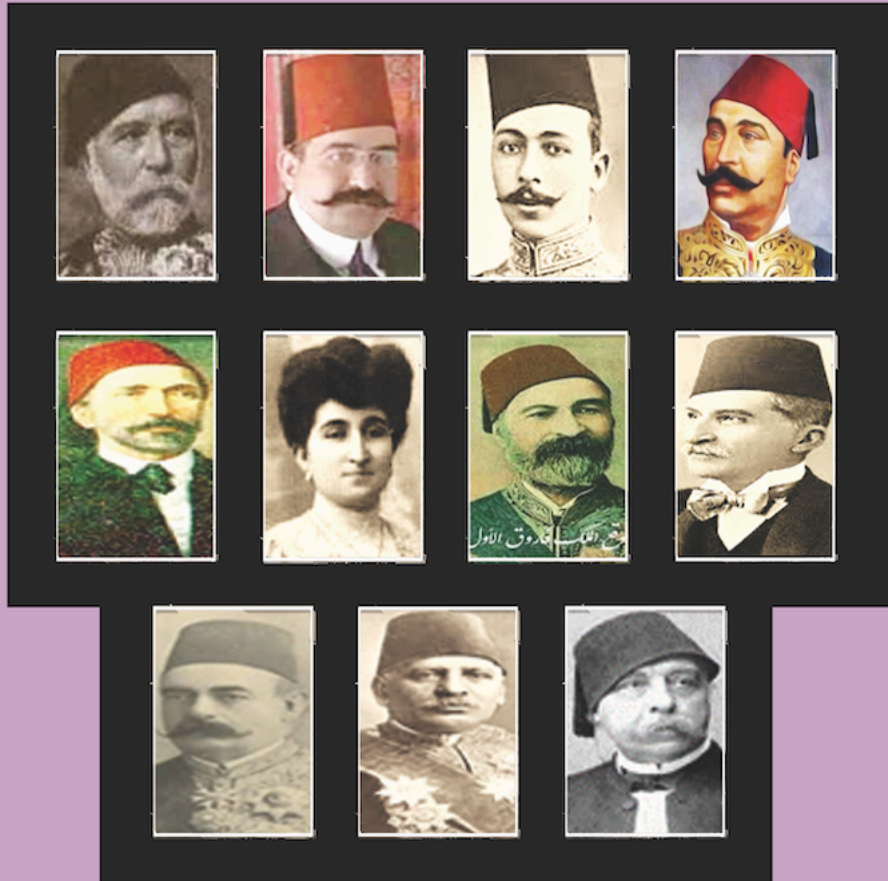




فيلسوف النهضة



فَيْبَلْ شَرَفِ
النَّهْضَةِ

الدكتور محمد راجوادي

فيلسوف
النهضة



الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

رادمك - ISBN
978-625-7810-69-2



للطباعة والنشر والتوزيع

هذا الكتاب

هذا كتاب في تاريخ الوطنية كتبناه بأسلوب أقرب إلى أن يكون كذلك كتابا في ثلاثة ميادين أخرى : في تاريخ العلم ، و في كيمياء الحضارة ، و في فيزيقا التقدم ، وليس هذا من قبيل الفخر بقدر ما هو اعتذار عن المقاربات المتباينة (ولا نقول المتناقضة) في الكتاب ما بين حماسة وخطابة، وشاعرية وقضاء ، و سرد وجرء ، وفخر وندم ، و ألم وأمل ، و تدقيق وتحقيق ، واسترسال وترميز ، ذلك أنه تعبير مكثف ومركز عن قراءة وعن رؤية وعن أمنية وعن تجربة .

نستهل هذا الكتاب بفصلين عن الزعيمين الوطنيين الذين انبعثت بوادر ثورة مصر ونهضتها (أو بتعبير أكثر دقة : ثورتها الناهضة و نهضتها الثائرة) على يديهما ، وهما الزعيمان مصطفى كامل ومحمد فريد ، ونعقب هذين الفصلين مباشرة بدراسة عن ننفرء بتسميتها الأم البيولوجية لثورة ١٩١٩ الأميرة نازلي فاضل ، و الدور الذي أطلق صالونها شرارته في توجهات النهضة والاستقلال ، وكأنما نقدم قراءة خاطفة لصورة مصغرة لأحوال مصر التي بدأت تعرف طريقها في الزعامتين الجهيرة و المستنتررة حيث الانضباط البروتوكولي في حضرة المرأة وحيث الحديث عن النهضة الاجتماعية وعلاقتها بالنهضة الأوربية والوضع السياسي .

هكذا يريد هذا الكتاب أن ينبئ بهذا الاستهلال بوضوح عن أن صراع الشعب ونخبته من أجل النهضة كان قد أذن بالانتصار ، فها هي قيادة الكفاح الوطني المنبثق من الجماهير أصبحت متبلورة من دون اصطناع و لا فرض ولا استعارة ، وقد تمثلت في أبرز زعيمين وطنيين وهما مصطفى كامل ومحمد فريد بذكائهما وإخلاصهما ودأبهما فضلاً عما تمتعا به من أرفع وأرقى صور الولاء والانتماء والوفاء والعطاء والفداء، وها هي أيقونة التحديث الهادئ للمجتمع متمثلة في الأميرة نازلي فاضل تؤدي بالموازاة لهما دورا طبيعيا لا ادعاء فيه ولا تكلف حتى وان كان جديدا على نسيج الحياة الاجتماعية والسياسية في مجتمع شرقي .

ثم نتناول في ثمانية فصول متوالية دراسة حياة رؤساء الوزارة الثمانية الأوائل الذين تولوا هذا المنصب على مدى ثلاثة عقود حافلة من تاريخ النظام الوزاري المصري الذي فرض على مصر فرضا ، بعدما أصبحت مصر بالاضطرار السفية مدينة لأوروبا واقتضى الدين أن تكون هناك وزارة مسؤولة عن أداء هذا الدين ، فتشكلت النظارة الأولى في أغسطس ١٨٧٨ بديلاً عن المجالس الوزارية السابقة التي كانت جزءاً من الوجود الخديوي والكيان الخديوي ، ومع أنه لم يكن هناك فارق كبير بين نظام الدواوين السابق ونظام الوزارة فإن هذه الهيكلية في حد ذاتها كانت إيذاناً بتقدم مصر في الخطوات الشكلية نحو تحقيق النهضة من خلال التمييز بين الأنشطة والمسؤوليات ، و ما صحب التمييز من جهد يستحق الإشادة على كل حال من حيث أسهم في تكوين وتشكيل وهيكله الوظائف النهضوية والآليات التنموية على مهل واتقان.

رتبنا حديثنا عن هؤلاء الرؤساء حسب حبنا وتقديرنا و تقييمنا لهم، وهو بالطبع حكم أقرب للذاتية منه إلى الموضوعية لأنه ينبع من تقديرنا لعناصر الوطنية ، ويحتمل بالطبع أن يلقى بعض الاعتراض والسخط من جانب بعض القراء، ونكرر أنه حكم وحب غير موضوعي حتى مع ما نقدمه من مبررات ، وحتى لو أن القراء والدارسين تقبلوه واعتبروه موضوعيا .

لم يكن من السهل علينا أن نأخذ مباشرة بهذا الأسلوب في ترتيب الفصول الثمانية لكننا بعد تردد وتمعن و بسبب الرغبة في تقديم رؤية نهضوية للنهضة ، و رؤية ثورية للثورة ، ورؤية تاريخية للتاريخ رأينا أنه أفضل من الأسلوب التقليدي الذي يأخذ بترتيب الحروف الأبجدية الذي اتبعناه في ترتيب الفصول الستة والأربعين في الباب الثاني من كتابنا "سوريا ولبنان قبل الناصرية والنصيرية" .

وقد أثرنا هذا الأسلوب أيضا على الأسلوب الكرونولوجي الذي يأخذ بترتيب الوصول إلى رئاسة الوزارة وهو ما اتبعناه في فصول كتابنا "القضاء والرئاسة في زمن السياسة" ، أو الأسلوب العمري الذي يرتب الأعلام حسب مولدهم أو وفاتهم .. وكلها أساليب قادرة بلا شك على التصنيف والترتيب مع ما تصده من توظيف للترتيب في تقديم الصورة والانطباعات .

دفعنا إيماننا بأهمية الدراسة المتأنية لظروف الساسة المصريين وفكرهم فيما قبل مشرق النهضة أن ندرس أسباب النكبة التي أصيبت بها مصر على يد شخصية مثل نوبار باشا بكل ما مثله أدائه من إيذاء لمصر وللوطنية، في الوقت الذي نرى نظيرا آخر له هو بطرس غالي الذي فهم القضية فهما مغلوطا بحكم ضيق أفقه فلم يدرك الفرق بين الزيادة والسيادة، وفي الوقت الذي نرى فيه حسين فخري باشا وهو يحاول سلوك مسلك الاستقلال وإن لم تسعفه الظروف، أو نرى مصطفى فهمي باشا وهو يستكين ويكرر الاستكانة بأقل الخسائر، أو نرى رياض باشا وهو مضطر إلى أن يعالج القضايا اليومية معالجة تقليدية تحفظ الأمن والانضباط وإن كانت لا تكفل للثورة روحا ، ومع هذا فإنه يحاول أن يميل إلى كل ما هو إيجابي وكل ما هو صواب .

وفي خضم هذا كله نرى إسماعيل راغب وهو يبدأ سياسة علمية تعتمد على المحاسبة والأرقام وإن كان لا يحظى بما يحظى به الذين يرتبطون بالولاء لدول النفوذ الأجنبي المستفحل من قبيل نوبار باشا. ومن ناحية أخرى فإننا قبل هذا كله نفتصر في هذا الكتاب على دراسة الجوانب السياسية في شخصية محمود سامي البارودي باشا مع إشارة خاطفة إلى ما يتعلق بالجوانب العبقرية من شخصيته الأدبية والفكرية العظيمة.

يجمع هؤلاء جميعا أن تأثيرهم الباقي نزع بهم وبنشاطهم الرائد و بعملهم التقليدي إلى ما يتعلق بجوهر موضوع هذا الكتاب ولم يقف بهم عند حدود أن يكونوا رموزا في الفكر أو الفكر السياسي فقد تجاوز تأثير ثلاثتهم وثمانيتهم الجانب السياسي إلى التمهيد الحثيث لعوامل النجاح في نهضة مصر التي سرعان ما تحققت في ١٩١٩ .

أجهدنا أنفسنا في تسجيل هادئ وناعم ومتدفق لكل ما وجدناه من عوامل ومقومات التفكير النهضوي المنبثقة في نشاط رؤساء الوزارات الثمانية الذين رأسوا الوزارة منذ نشأة النظام الوزاري في ١٨٧٨ وحتى اعتلى آخرهم بطرس غالي مقعده في ١٩٠٨ مع أننا نعترف بأننا نراهم في وعيهم وقدراتهم لا يخرجون عن النموذجين اللذين كانا يديران الأمور البيروقراطية ويمثلون أقصى ما هو متاح لتمثيل طبقة التكنوقراطيين، ما بين إداريين بدأوا في الجندية وتحولوا إلى الإدارة مثل شريف باشا ورياض باشا ومصطفى فهمي باشا أو لم يتحولوا مثل البارودي باشا ، وما بين موظفين كتابيين كان أقصى ما وصلوا إليه من الكفاءة التكنوقراطية أن يكونوا مديري حسابات يعرفون لغة أجنبية أو أكثر من أمثال نوبار باشا وراغب باشا وبترس غالي و مع هؤلاء السبعة رئيس وزراء وحيد (هو حسين فخري باشا)، كان هو الذي أتم تعليما حديثا في أوروبا لكن الانجليز بدهائمهم سارعوا بالانقلاب عليه قبل أن يمضي ثلاثة أيام في منصب رئاسة الوزارة .

ومن المفهوم أن مستوى أداء المهنة ارتفع بأداء راغب باشا مثلا إلى مستوى المحاسب لكن مجمل الأداء التنفيذي كان أقل من أن يصل إلى المستوى الذي بدأت الحكومة المصرية تعرفه بدءاً من ١٩١٠ على يد الزعيم سعد زغلول وتلاميذه أو على يد رجال القضاء من طبقة محمد سعيد باشا وحسين رشدي وزملائهم الستة الآخرين الذين عرضنا سيرتهم في كتابنا "القضاء والرئاسة في زمن السياسة" الذي هو توأم لهذا الكتاب .

من ناحية أخرى فقد كانت النهضة ترسل ببشائرها بوصول أصحاب الفكر الراديكالي والإصلاحية تدريجياً إلى قيادة الجماهير أو قيادة السلطة أو قريباً منها، وذلك على نحو يتكامل مع الصور المستوعبة التي قدمناها في كتابنا "الشركاء المتشاكسون في ثورة ١٩١٩" والذي يستعرض سير حياة ثلاثة من الزعماء : عدلي يكن باشا، والشيخ عبد العزيز جاويش ، و عبد العزيز باشا فهمي .

وهكذا يأتي هذا الكتاب لينضم إلى مجموعة كتبنا السابقة عن أعلام هذه الحقبة ، وهي الكتب التي لقيت من التقدير والإقبال فوق ما تستحق ، وفي مقدمتها كتابنا المرجعي عن زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا ، وكتبنا عن اسماعيل صدقي باشا ، و علي ماهر باشا ، و محمد محمود باشا، و عثمان محرم و كتابنا " المقامر و المغامر و المكابر " عن ماهر والنقراشي ومكرم ، وربما يكون كتابنا عن ابراهيم عبد الهادي باشا و عبد الحميد بدوي باشا مفتي الحقبة الليبرالية رأياً النور بعد طول احتباس في المطابع منذ عشر سنوات.. و ندعو الله أن يحقق أملنا في أن يكتمل أثر هذا الكتاب ودوره التنويري مع كتبنا المواكبة له .

و بهذا تتراكم هذه المجموعة المخصصة لرسم البورتريهات السياسية مع مجموعة سابقة استقر وجودها في مكتبتنا و دراساتها منذ نهاية القرن الماضي ، تضم خمسة كتب هي : "على مشارف الثورة " و "في كواليس الملكية " و"في رحاب العدالة " و" العمل السري في ثورة ١٩١٩" و "في ضوء القمر : العمل السري والاعتقالات السياسية " .

وبهذه الكتب تكون موسوعتنا عن الحقبة المصرية الليبرالية فيما قبل ١٩٥٢ قد أوشكت بإذن الله على الاكتمال ، وهي الموسوعة التي استغرقت كتابتها من حياتنا قرابة خمسة وأربعين عاماً تنوعت فيها مصادرنا بأكثر مما هو مسجل و معروف ومتصور عن تنوع مصادر كتابة التاريخ، ولولا فضل الله علينا في كل يوم من أيام هذه السنوات الخمس والأربعين ما استطعنا أن ننجز هذا الإنجاز الذي ندعو الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به.

وليس لنا أن نقول بعد كل ما في هذا الكتاب من الاجتهاد في التحقيق والموازنة والتلخيص والعرض والتقييم والمقارنة إلا أن هذا بعض ما وفقنا الله إليه من بعض ما يسره لنا من بعض ما فتح الله علينا به .

أدعو الله سبحانه وتعالى مرة ثانية أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأدعوه جل جلاله أن يوفقتني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربه المطبعية في ظل غربتي ومرضي وتشردتي واستيحاشي ، والوقت لا يسعني، والجهد يتضاءل، والذكاء يخبو ، و الألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، و السهل يتعقد ، والنفس يتقطع ، والأمل يتضعع، والعمر قصير، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل الله جل جلاله وكرمه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدني برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادراً على شكر فضله.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حبيت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذكري، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغني، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل ، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وإخلاص المؤمنين ، وشك الأطباء، وخيال المبدعين ، وتساولات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقتني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد، كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الباب الأول : الزعامة

الفصل الأول : مصطفى كامل الروح التي استيقظت بها مصر

الجانب الجوهري في تكوين مصطفى كامل

أبدأ بحديث موجز جدا أهم الجوانب في تكوين مصطفى كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨ وهو الجانب الذي لم يتناوله أحد من مؤرخيه على نحو مستقل، وذلك بسبب ما احتوته وطنيته من حياته وما احتوته حياته من وطنيته، هذا الجانب هو الثقافة، فقد كانت الثقافة الرفيعة والأصيلة هي العنصر الغالب على تكوين مصطفى كامل في شبابه، وكانت هي الدافع الذي دفعه إلى طريق الأداء المتميز في الوطنية المقترحة الرائدة، ولولا ما تمتع به مصطفى كامل من ثقافة لظل أثره محصوراً في نطاق ضيق من الفكر ومن العمل على حد سواء، لكن ثقافته هي التي نفعته و دفعته إلى كل ما اختطه من السبل الكفيلة بتحقيق أهدافه من سعيه الوطني الجاد نحو استقلال وطنه، وحرية مواطنيه.

وليس من شك في أن خطابة الزعيم مصطفى كامل تنطق بما كان يتمتع به من ثقافة رحية و حية لا تقوم على الجدل ، ولا على تكرار الأصول ، ولكنها تنطلق مباشرة إلى مقاربة الأماني من خلال الحديث عن الواقع ومدى استحقاق أهل الواقع لأن ينالوا ما يتمنونه لأنهم أهل به. كذلك فإن ثقافة مصطفى كامل تتجلى في مفرداته بوضوح شديد ، وتتجلى أكثر في بنائه لعناصر خطبه وأحاديثه أو مراسلاته وتتجلى في تمسكه بالمنطق والترتيب والمعقولية والحلم و الأمل وبعده عن اليأس و الإغراب والتشاؤم والمغالطة والرهبية .

سبب وفاته المبكرة

نثني بخاطرة لغوية تتعلق بالنهاية المبكرة لحياة مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ - ١٩٠٨) في سن الرابعة والثلاثين فنقول إن التفسير الشائع هو أن الوفاة كانت بسبب إصابته بالسل وهجوم نوبة شديدة من نوبات السل عليه في عصر لم يكن قد عرف المضادات الحيوية بعد ، ومع هذا فلا يخلو الأمر كالعادة من أراجيف تشير إلى موته بالسم وهكذا فإن اللغويين قد يختصرون مثل هذه الحالة فيقولون إن نهايته كانت بين اللام والميم (السل والسم) واللام والميم كما نعرف حرفان متجاوران فكأن النهاية حُشرت حُشراً بين حرفين متتاليين.

موقعه العمري بين أئداده من الزعماء التاريخيين

يتعلق بهذا أن نلفت النظر سريعا إلى أن مصطفى كامل كان في زعامته سابقاً على من كانوا يسبقونه في السن والتخرج والحركة الوطنية، والمثل الواضح بالطبع هو سعد زغلول (١٨٥٩ - ١٩٢٧) الذي كان قد شارك في الثورة العربية (١٨٨٢) وأوذي بسبب هذه المشاركة لكن زعامته لم تتحقق على سبيل اليقين المطلق و لم تتبوأ مقعد الزعامة الأولى إلا بدءاً من ١٩١٨ أي بعد وفاة مصطفى كامل بعشر سنوات. وقل مثل هذا في كل جيل مصطفى كامل ممن كانوا يكبرونه بعشر

سنوات فأكثر من قبيل حسين رشدي باشا وأحمد فتحي ز غلول باشا وقاسم أمين بك (وهم المولدون في ١٨٦٣) أو من هم مولدون في ١٨٦٧ و ١٨٦٨ مثل طلعت حرب باشا وعمر لطفي بك ومحمد فريد بك... الخ .

فإذا أردنا من كانوا زملاء لمصطفى كامل في الحقوق فإننا نجد أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذي يكبره بسنتين والذي عاش بعده ٥٥ عاماً أصبح في نهايتها بمثابة رجل الفكر الأول على قيد الحياة في مصر. كما أننا نجد رؤساء الوزارة عبد الخالق ثروت الذي يكبره بعام أو شهرين (١٨٧٣ - ١٩٢٨) و إسماعيل صدقي الذي يصغره بعام (١٨٧٥ - ١٩٥٠). لا نغادر هذه النقطة من دون أن نشير إلى أمر غير مشهور وهو أن لمصطفى كامل شقيقاً شاركه كفاحه ونجاحه وكان أيضاً من أبرز مساعدي الزعيم محمد فريد في رئاسة الحزب الوطني، وهو علي فهمي كامل بك ١٨٧٠-١٩٢٦ الذي توفي فجأة وهو يتحدث عن شقيقه في حفل عام ، ولا نغادر هذه النقطة من دون أن نشير أيضاً إلى أن له أخاً كان بمثابة ولي أمره، هو حسين واصف باشا ١٨٥٧-١٩٢٣ وكان من كبار مهندسي الري وموظفي الاشغال وقد تولى الوزارة في وزارة عبد الخالق ثروت باشا ١٩٢٢ بعد وفاة مصطفى كامل.

الحلم والواقع

نعود إلى الخطاب السياسي لمصطفى كامل فنقرر ما نؤمن به من أن حديث مصطفى كامل في السياسة قد يبدو في الوصف السياسي أقرب ما يكون إلى أن يكون حديثاً حالماً رومانسياً لكن أحداً لم يصفه بهذه الصفة لسبب واحد هو انه لم يكن يفارق الواقع الذي يتحدث عنه، وإنما كان يتحدث عن الواقع كما يجب أن يكون وكما يجب أن يكون ، ولهذا فإنه على سبيل المثال لم يتحدث عن الأمانى المستحيلة وإنما عن الأمانى المشروعة حتى وإن كان القادرون على تحقيق هذه الأمانى للشعب رافضين لفكرة الوفاء بها لأصحابها.

قدرته على التعبير

كان مصطفى كامل قادراً على التعبير الصائب و المصيب ولهذا فإنه رأى في خطابه المعلن أن القدرة على التعبير كفيلة تماماً بأن تغني عن حمل السلاح و بأن تغني عن العمل السري والفدائي ، وبخاصة أنه قد أتى له قبل أن يبلغ العشرين من عمره أن يعرف طبيعة الاستقرار السياسي في المجتمعات الأوربية المستقرة التي تجاوزت فكرة المقاومة الشعبية بالسلاح وبدأت في سبيلها الموثوق به من ممارسة الحياة الحزبية، والنقاشات المفتوحة.

داعية قبل أن يكون زعيماً

حين كان على مصطفى كامل أن يحدد موقفه من الحياة التي يتمناها لوطنه فإنه كان من الذكاء بحيث اختار دور الداعية المثابر لا الداعية الموجد ومع أنه كان يؤدي دور الثائر فإنه رأى في هذا الدور جانبه المثابر ، ولهذا فإنه لم يقفز مباشرة إلى دور الزعامة حتى وإن جاءت الزعامة بصورة تلقائية بفضل النجاح الفذ والمبكر و السريع الذي حققه في دور الداعية، ومع هذا أيضاً

فإنه ظل حتى مماته مؤثراً دور الداعية على دور الزعيم ، حتى بعد أن تمكن من تأسيس كل الكيانات الداعمة للزعامة الحقبة متمثلة في الحزب الوطني وفي الصحافة الناطقة بأكثر من لغة، وفي نماذج العمل الاجتماعي الجماهيري الخدمي متمثلة في المدرسة أو المدارس .. وهكذا.

والواقع أن كل هذا التأسيس لم يشغل مصطفى كامل عن الدور الجوهري الذي رآه لنفسه وهو دور الداعية في الداخل والخارج على حد سواء ، فهو في الداخل يوقظ النفوس إلى حقوقها، وواجبها تجاه هذه الحقوق، وهو في الخارج يعرّف الأسماع بهذه الحقوق ، وبأن أصحابها يطلبون الحصول عليها ولا يهملونها، وهو في هذين الحالين يعقب على الأحداث الجارية بذكاء و انتماء ، ويستلهم التجارب الإنسانية في خارج مجتمعه أو في خارج زمنه استلهاما يحقق له الإقناع الواضح الصريح بعيداً عن الدخول في معارك التفاوض والنفي والإنكار والجحود، و بعيداً عن الإقراط في نقد المستعمر أو في التنديد بسياساته إذ أنه كان في كل ممارساته أميل إلى التنبيه منه إلى التنديد.

ومع هذا الميل الواضح فإنه كان حريصاً على الخط الفارق بين الثورة و الادعاء فهو لا يهادن ولا يتقبل الحلول الوسطى من ناحية، كما أنه لا يتقبل التوسط في الوطنية، لكنه من ناحية أخرى لا يوجج العداوة ، ولا يفرط في الذم أو التحقير أو التجريم ، وقد ظل دقيقاً في الالتزام بهذا النمط من الأداء لأنه كان ينطلق من نفس ترنو إلى المثاليات ، بقدر ما ترنو أيضاً إلى الانتصار والقدرة على تحقيق الأمل.

التحمس بعيداً عن التخوين

نستطيع أن نفهم من محاورات مصطفى كامل مع أنصاره أو المقتنعين به سر هذه المعادلة المنضبطة التي كانت تجعله متحمساً لذاته ولوطنه من غير أن ينتقد حماس الآخرين لأوطانهم أو أفكارهم ، ومن غير أن يرميهم بالعداوة الظاهرة والباطنة التي هي مرادف للخلاف والاختلاف في ثقافة البيئة الفكرية التي عاش فيها.

ولست أريد أن أمضي في مثل هذا الوصف النظري للتعادلات المتوازنة التي حكمت سلوك مصطفى كامل في التعامل مع الرأي الآخر ، لأنني أستطيع أن أدل القارئ على ما روته في موضع آخر من موقفه من الأستاذ محمد فريد وجدي حين أراد أن يفتح باباً جدلياً للمناقشة مع من ينكرون حقوق المصريين فإذا مصطفى كامل لا يتقبل هذا المسلك في معاملة الأعداء، مع أنه في الوقت ذاته لم يكن يرحب بالأساليب التقليدية في الهجاء والنقائص.

روافد فكره

ما الروافد التي تحكمت في تفكير مصطفى كامل؟ لا شك في أن مصطفى كامل تأثر بالتاريخ تأثراً لا نهاية له، ولا شك في أنه تأثر بالمعاني الإشراقية في فلسفة الحياة تأثيراً واضحاً لكنه قبل هذين التأثيرين كان تلميذاً مجتهداً في مدرسة الحرية التي غذتها كتابات أدباء عصره الذين ظلوا متأثرين بأفكار من سُموا برواد التنوير الذين تناولوا الحرية السياسية من منطلقات إنسانية

صورها على أنها لازمة لاستكمال إنسانية الإنسان من حيث التكوين، ولاستكمال إنسانية الإنسان من حيث الحياة التي لا بد أن ينعم بها ولا بد أن ينعم فيها وصورها من ناحية ثالثة مرتبطة بالعقد الاجتماعي المتنامي في اتساعه بحكم المنطق و التسلسل ، و الذي من المفترض أنه يتجاوز المجتمع الوطني إلى المجتمع الإنساني كله .

الحياة جهاد وحق في الوقت نفسه

كان مصطفى كامل ينظر إلى الحياة على أنها جهاد وكفاح لكنه كان ينظر إلى حق الإنسان الذي يحيا في أن ينال ما يتمناه أو ما يستحقه باعتباره إنسانا أولا ،وباعتباره منتما إلى مجتمع يستحق الحياة ثانيا، ولم يكن مصطفى كامل في دعوته إلى الحياة يتعالى على مستمعيه أو يشترط عليهم أن يجاهدوا لينالوا ما يستحقون، فقد كان حديثه الموحى بجمال وحسن وروعة وعدالة ما يطلبه للجماهير يبدو كافيا بما فيه القدر لتثبيته هذه الجماهير إلى الجهاد.

لم تقهره القوالب

وبفضل الثقافة الأصيلة فقد تمكن مصطفى كامل من أن ينجو من الانتماء الحزبي إلى المؤسسات الحزبية العابرة للدول، أي أن ينجو من الانتماء الحزبي إلى بوادر الحركة الشيوعية مثلا أو إلى بقايا فكر السان - سيمونية مثلا، وهكذا لم تقهره القوالب أو تحدده ، وإنما كان ينطلق بكل وضوح إلى كتابات من يؤمنون بالإنسان ، ومن يؤمنون به هو نفسه من أهل الفكر والإنسانية وذلك من قبيل الكاتبة الفرنسية جوليت آدم ١٨٣٦ - ١٩٣٦ وهي الكاتبة التي قدر له أن يحظى برعايتها وتوجيهها بفضل فارق السن الكبير الذي كان بينها وبينه، وهو فارق ساعد هذه العلاقة على أن تمضي في طريقها متمتعة بطابع الأمومة المتأخرة التي لا تعبر عن نفسها بهذا المعنى السلطوي حتى وإن منحتة كل ما في الأمومة الفكرية من عطاء ، ونحن نعرف أن جوليت آدم هي التي كانت تقترح عليه من يستطيع أن يتصل بهم من أهل التقدير في المجتمعات الأوروبية ، وأنها هي التي عرفته بالمجريين (وغيرهم) من الذين كرر زيارتهم والمرور بهم كي يفيد من تجربة قريبة الشبه من الظروف المصرية في السياسة والاستقلال الوطني.

الاستقلال بعيدا عن التحالفات الأجنبية

كان مصطفى كامل منزلها لنفسه عن كل ما هو متاح من العلاقات المريبة بالجماعات السياسية الأجنبية، ولم يكن هذا بالأمر السهل، وكان هذا التنزيه الذي اختطه مصطفى كامل لنفسه أثراً من آثار ثقافته الاصلية التي ترتفع إلى آفاق الفكر المتجرد في إنسانيته بعيدا عن إغراءات التحالفات والمبادلات والمقايضات السياسية التي كانت تتاح في ذلك العصر المستقطب تماما لزعيم وطني شاب و واعد من طراز مصطفى كامل.

الدولة العثمانية تعرف الحقيقة

ونستطيع أن نقول ما لم يسبقنا إلى قوله أحد وهو أن هذا التنزه والترفع عن التحالفات مع الجماعات الأوروبية (بما فيها الجماعات الحاكمة) كان هو السبب الحقيقي (وغير المعلن) للاحترام

الذي حظي به مصطفى كامل في الدوائر السياسية العليا في الدولة العثمانية، ذلك أن نشاط مخابرات هذه الدولة القديمة قدم بكل تأكيد ما يرقى إلى أن يكون دليلاً واضحاً على عدم تورط مصطفى كامل بأية صورة في أي عمل يمس أمن وسلامة الدولة العثمانية التي كانت كل أنواع وسلالات الذئاب تحيط بها من كل جانب، وبالطبع فمن المؤكد أن مصطفى كامل تعرض لإغراءات عديدة تغلب عليها بيقينه وإيمانه.

ولهذا السبب فقد كان السلطان عبد الحميد ١٨٤٢-١٩١٨ حريصاً على تنويع مصطفى كامل باشا بالباشوية في ١٩٠٤ وهو ما يتوافق ما هو معروف من ذكاء السلطان عبد الحميد ونباهته وانتباهه وحيويته وكسره للتقاليد، ومن قبل هذا فإنه منحه البكوية كما كان حريصاً على استقباله واللقاء به، وحسن التعليق على نشاطه وكرام وفادته بينما كان هذا السلطان العظيم في الوقت ذاته قادراً على أن يكتشف من يشك في أنهم عملاء أو جواسيس أو أغبياء على حد تعبيره.

أكثر زعاماتنا حظاً مع التاريخ

وقبل أن نتحدث عن معاناة مصطفى كامل وعن نجاحاته وتجاربه وفشله ومرارته فإننا نذكر في إشارة سريعة سنفصل القول فيها فيما بعد أنه أكثر زعاماتنا حظاً مع التاريخ ، والفصل في هذا لعبد الرحمن الرافعي الذي تتبع حركاته وسكناته وكلماته وخطبه ومراسلاته على نحو ما يفعل المؤرخون الغربيون مع أعلامهم ، وهكذا قدم لنا سفره العظيم عن مصطفى كامل وسفره الشقيق عن محمد فريد، وما يتعلق بهذين السفرين مما هو بعدهما وقبلهما من تاريخ الحركة الوطنية، وربما أصدم القارئ بالقول بأن الإمام الشهيد حسن البنا الذي كان نائب الحركة والخطابة لم يلق حتى هذه اللحظة من أحد من الإخوان المسلمين اهتماماً كالاتمام الذي لقيه مصطفى كامل باشا من الرافعي المؤرخ وذلك على الرغم من أن الكتابات التذكارية عن الإمام الشهيد حسن البنا تبلغ عشرين ضعفاً ما هو مكتوب عن مصطفى كامل باشا لكنها بلغة العلم التاريخي الموسوعي تظل أقرب إلى أن كون أوراقاً قيّمة متبعثرة ولا يتمثل منها جميعاً كتاب واحد، وقل مثل هذا عما حدث مع الرئيس المدني المنتخب الرئيس محمد مرسى رحمة الله عليه، بل قل مثل عن الرئيس جمال عبد الناصر فالمنشور حتى الآن عنه لا يعدو أن يكون صادراً عن ميدان الزقزقة والشقشقة لا أكثر ولا أقل وذلك على الرغم من ضخامة وسطوة وقوة وغطرسة وإمكانات جهازه الإعلامي ومن عملوا فيه.

كان طريقه سهل الوصف والرصف

ليس من شك في أن جزءاً من هذا التقصير يعود إلى تقصير المحيين والاتباع إذا ما قورن بحظ مصطفى كامل في الرافعي، وهذا رزق من الله، لكن جزءاً منه يعود بالطبع إلى أن طريق مصطفى كامل كان بلغة التاريخ سهل الوصف والرصف فقد كان طريقاً مستقيماً متعاقباً في محطاته ومراحله بدون تفرعات ولا انحناءات ولا عطفات ولا على دورانات ولا ميادين.. الخ.

المقارنة بين كتابة الرافي عنه وكتابتنا عن النحاس

إذا واجهنا واحد ممن يحبوننا بأن كتابنا عن الزعيم مصطفى النحاس يتفوق على كتاب الرافي عن مصطفى كامل فإننا نرد عليه في لمح البصر بأن الإمكانيات المتاحة للمؤلف كانت مختلفة تماماً سواء على مستوى المؤلف أو على مستوى العصر، فضل الرافي في الاستقصاء والدأب في تتبع حياة حياة مصطفى كامل يفوق بالطبع فضلنا الخارق في حياة ثرية حافلة بالنشاط والحركة والمجد والصراع والفهم والقرار والانجاز والمعارك كحياة مصطفى النحاس باشا، ومع هذا فقد استطاع الرافي العظيم مع محدودية المادة المتاحة أن يرسم صورة فريدة لزعيمين فريدين.

دوره فيما حققته الحركة الوطنية من النجاح

إذا ما أردنا أن نبدأ في الحديث التاريخي عن مكانة الزعيم مصطفى كامل في تاريخ وطنه فإننا نبادر بالقول بأن كل النجاحات الوطنية التالية له اعتمدت على التمهيد القوي والأساس المتين الذي بناه، وبلغة الهندسة فإنه هو صاحب البنية الأساسية إذا كان سعد زغلول باشا هو صاحب المبنى الأول ومصطفى النحاس هو صاحب الصرح الكبير الذي قام إلى جوار المبنى الأول، وهو نفسه الصرح الذي أضيفت إليه بعد ذلك بعض العشوائيات الجذابة بأيدي حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سواء أكانت هذه العشوائيات الوطنية الجذابة محلات في الواجهة، أو مخازن في البدروم أو مطاعم فوق سطح المبنى الصرح.

نماذج لنجاحاته المبكرة

وفي خضم سعي الوفد المصري إلى تحقيق النجاح في قضية الجلاء والاستقلال فإن نجاحات مصطفى كامل المبكرة كانت ماثلة للعيان بوضوح، فمصطفى كامل بخطابته هو الذي استطاع زعزعة وجود المندوب البريطاني العتيد لورد كرومر حتى أزاحه بالفعل عن مصر، ومصطفى كامل هو الذي أجج رد الفعل العالمي والبريطاني تجاه التجاوزات في حادثة دنشواي، ومصطفى كامل هو الذي مهد لدخول المصريين الأصليين إلى دولاى الحكم وهو ما تمثل في تعيين أول مصري (كان لم يحز الباشوية بعد) إلى الوزارة في ١٩٠٦ وكان هذا البك المصري الذي لم يحز الباشوية بعد وأصبح وزيراً هو سعد زغلول نفسه.

ومصطفى كامل هو الذي بدأ التطلع إلى استقلال مصري حقيقي في القرار والاقتصاد والإنتاج والتجارة والتعاون والصناعة والرياضة والحركة النقابية قبل طلعت حرب وعمر لطفى واسماعيل صدقي وغيرهم.

ومصطفى كامل هو الذي بدأ السعي في خلق مدارس مصرية وتعليم ليلي من أجل محو الأمية، وهو الذي بدأ السعي العملي من أجل إيجاد جامعة وطنية وهكذا.

بل إن الحياة الحزبية بمعناها الحقيقي البعيد عن الولادة من باطن السلطة لم تتحقق إلا على يد مصطفى كامل، وقل مثل هذا في الصحافة الحزبية، وقل مثل هذا في التمثيل الخارجي للحركة الحزبية المصرية سواء كان هذا في الدولة العثمانية أو الدول الأوروبية.

بل إن فكرة الاحتذاء بالتنموي المتمثل في الاقتداء بتجربة اليابان بلاد الشمس المشرقة بدأت على يد مصطفى كامل وليس غيره.

صرف النظر عن التعويل على الفرنسيين

كانت أبرز نتيجة توصل إليها مصطفى كامل قبل وفاته بأربع سنوات هي نفض يده من الفرنسيين الذين اكتشف أنهم يتاجرون بالقضية المصرية ولا يخدمونها، فقد جاء توقيع الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا بمثابة نهاية قاسية لكل ظنون مصطفى كامل الحسنة وأمانيه من الفرنسيين ، ومع قسوة هذه النتيجة فإنها كانت مفيدة إلى أقصى حد للكفاح المصري في سبيل الاستقلال فلم يكن أحد في ثورة ١٩١٩ على استعداد لأن يكرر الانخداع و يبني آمالاً على مساعدة فرنسا حتى وإن خاطب الزعماء الفرنسيين بالود أو قام بزيارات لهم على سبيل التحية على نحو ما فعل سعد زغلول باشا مع زعامات من طبقة كليمنصو .

ومع أن مبدأ الشك في الفرنسيين وإخلاصهم كان متبلوراً ، وإن لم يكن مُعلناً فإن الشك في الأمريكيين لم يكن بذات القدر حتى أن الوفد اجتهد فتعاقد مع محام أمريكي لعرض القضية و اجتهد فأرسل كلا من محمد محمود باشا ومكرم عبيد باشا للدعاية للقضية المصرية في واشنطن، ومع هذا فإن نتائج هذا السعي لم تكن باعثة على أي أمل، لكن الزعماء فضلوا أن يحتفظوا بخيبة الأمل لأنفسهم ولا يوزعوها على الشعب.

صورة مصطفى كامل في كتابات المؤرخين

أما أهم الجزئيات فيما يتعلق بتاريخ مصطفى كامل والحزب الوطني ومكانتهما التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر فهي صورته المرسومة في تاريخنا ، وهي صورة مضطربة المعالم الى ابعاد الحدود لاسباب سنشير اليها بكل وضوح وصراحة بعد ان نرسم الاطار العام للتنازع التاريخي الذي لا يزال مسيطرا على آلياتنا السياسية والفكرية .

ربما كان من المفيد أن نبدأ بالحديث عن أوليات التفكير البيولوجي في فهم الحياة الحزبية في أي مجتمع حي لأنه أمر ضروري للفهم العميق لعدة جزئيات تتعلق بتاريخنا الحديث.

و من باب تيسير الأمر على القراء نبدأ بدايات سريعة ومباشرة بأن نذكر على سبيل التقريب أن هناك توجهات ، وأن هناك أحزاب، وأن هناك ساسة ، وأن حركة التاريخ الحي أو البيولوجي تتمثل في التبادل المشروع الذي يحدث بين التوجهات والأحزاب والساسة ، وعلى سبيل المثال التقريبي فإنه إذا كان هناك توجه "استقلالي" تولاه مصطفى كامل باشا حتى وفاته في ١٩٠٨ من خلال الحزب الوطني فإن هذا التوجه نفسه قد تولاه سعد زغلول باشا من خلال الوفد بدءاً من ١٩١٨ ، وهنا لا نستطيع أن نقول للتاريخ أو أن نطلب منه أن يمسخ تاريخ سعد زغلول حين كان منتمياً لحزب الأمة فيما قبل دوره التاريخي والخالد في ثورة ١٩١٩ بدءاً من ١٩١٨ وحتى وفاته في ١٩٢٧ ، وهنا أيضاً نستطيع أن نقول إن سعد زغلول باشا المولود في ١٨٥٩ تالٍ في التوجه الوطني لمصطفى كامل باشا الذي ولد بعده بربع قرن في ١٨٧٤ من دون أن يتطلب هذا من

المؤرخ أن يدين ماضي سعد زغلول باشا قبل شروعه في توجهه الوطني، (وهو ما لا يزال يفعله بعض أنصار الحزب الوطني بإصرار و ترصد) و من ناحية أخرى فإننا لا نستطيع أن نطلب من التاريخ أن يدين طبيعة التوجه الوطني لمصطفى كامل باشا الذي كان سابقا على سعد زغلول باشا ، فنصوره على أنه تبعية للدولة العثمانية وليس حبا في مصر نفسها مع أن كلمات مصطفى كامل باشا الخالدة في حب مصر والتعصب لها تكاد تكون مستقرة في قوقعة كل أذن مصرية.

نموذج الجمع بين الوطني والوفد

من دهاء التاريخ ومن حسن حظ مصر أن الزعامة التي ورثت زعامة سعد زغلول باشا وتحملت قيادة الحركة الوطنية ١٩٢٧ وحتى ١٩٥٢ أي حين تم تأميم السياسة على يد العسكر كانت تعبيراً عن هذا التطور البيولوجي فقد كان مصطفى النحاس باشا في شبابه الباكر من أنصار مصطفى كامل و الحزب الوطني فلما ظهرت حركة الوفد المصري انضم إليها ممثلاً للحزب الوطني وظل يصعد في درجاتها ومدارجها بإخلاصه ووطنيته حتى صارت له الزعامة.. هكذا فإننا و بتعبير الفكر البيولوجي نرى مصطفى النحاس باشا ظل على التوجه ذاته لكنه غير الحزب مع التغيير البيولوجي الذي طرأ على تبني التوجه ، فقد أصبح الوفد أكثر قدرة على تبني توجه الاستقلال بأكثر من الحزب الوطني، أي أن النحاس باشا من باب التقريب لم يغير توجهه وإنما غير الحزب فحسب ، أما سعد زغلول باشا فإنه في ١٩١٨ غير التوجه والحزب معا ولم يغير الحزب فحسب.

نموذج البدء بالحزب الوطني والانهاء بالدستوريين

وإذا كان من السهل أن نتفهم حركية التاريخ وحيويته من خلال الأمثلة التي تتجسد في الأشخاص على نحو ما فعلنا في النموذج الذي قدمناه لتونا ، فإننا نستطيع أن ننتهز الفرصة ونذكر نموذجا ثالث يرتبط بالنموذجين اللذين ذكرناهما لتونا ، وهو نموذج حافظ عفيفي باشا الذي بدأ حياته السياسية في الحزب الوطني بل كان من أكثر شباب هذا الحزب انحيازاً إلى مقاومة المحتل والمتعاونين مع المحتل، وقد ذكرنا في كتابتنا التفصيلية عن عبد الخالق ثروت باشا أن حافظ عفيفي باشا كان من أقرب الناس إلى الورداني الذي اغتال بطرس غالي باشا ، وأن الشبهات أحاطت باشتراكه في هذا الاغتيال.. الخ، ومن الجدير بالذكر هنا أيضا أن حافظ عفيفي باشا كان مع مصطفى النحاس باشا بمثابة الممثلين الذين مثلا الحزب الوطني في الوفد المصري عند تأسيسه، وهكذا مرّ حافظ عفيفي باشا بما مرّ به مصطفى النحاس باشا لكنه سرعان ما أثر أن ينضم إلى الأحرار الدستوريين الذين انشقوا على الوفد وعلى زعامة سعد زغلول باشا .. وهكذا مرّ حافظ عفيفي باشا بثلاثة أحزاب بل إنه في نهاية عهد الملك فاروق أصبح ملكيا أكثر منه حزبيا وتولى رئاسة الديوان الملكي حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ذكاء مصطفى كامل في التعامل مع مكائد الإنجليز

نعلم أن الشائع عن عبقرية الزعيم الوطني العظيم مصطفى كامل باشا في أدائه أنه خطيب متحمس ذكي الفؤاد، بليغ اللسان، طلق العبارة مُجيد للحديث عن مشكلات وطنه، ونعلم أنه بسبب وفاته المبكرة وانشغاله المبكر بالدعاية لقضايا وطنه لم يشغل وظائف تنفيذية تنم عن قدرته على إدارة الأمور والتعامل معها، لكن هذا وجه من وجوه الحقيقة التي لم يُعن أحد بمقاربتها على كلي، فقد كان من أسباب نجاح مصطفى كامل باشا إدراكه لفكرة ترتيب الأوراق والخطوات ، وكان يجيد هذه المهارة إلى أقصى حد ممكن ، من دون مبالاة بها ، ونستطيع أن نفهم هذا المعنى من قراءة تاريخ اتصالاته بالأوروبيين سواء في ذلك الانجليز المحتلين أو غيرهم من الشعوب الأخرى من الذين كانوا لا يمانعون في الظهور بمظهر تأييد مصر في جهادها للخلاص من الاحتلال البريطاني.

وقد كان مصطفى كامل باشا على سبيل المثال يبعث برسائل إلى الساسة الأوروبيين الكبار يسألهم بكل أدب وصراحة هل هم يوافقون على استمرار الاحتلال البريطاني، وبالطبع فإن هؤلاء الساسة في عصر اتسم بوضوح الرؤية (قبل طغيان الخداع اللفظي الذي اخترعه الأمريكان) كانوا يصارحون مصطفى كامل باشا برؤاهم مهما اختلفت عن تصوره وأمانيه ، بل كان بعضهم يصارحه حتى باعتقاده في أن الشعب المصري مثلاً لا يعمل من أجل الجلاء مع أنه يملك مقومات تحرير وطنه. وهو المعنى الذي كتبه نائب بارز في البرلمان النمساوي لمصطفى كامل باشا حيث قال له: إن الانجليز لهم في مصر ٣ آلاف جندي بينما يملك الخديو جيشاً من ١٣ ألف ، و قوات بوليس من ٥ آلاف، وليس لهذا من معنى في رأي هذا النائب إلا أن المصريين راضون على نحو ما عن الاحتلال البريطاني على نحو ما يشيع البريطانيون أنفسهم.

والواقع أن قدرة مصطفى كامل باشا في التعامل مع الجهات الحكومية في مصر اتسمت بالذكاء الذي لم يمكنها من تقييد حريته أو حركته عبر المكائد، ولعل أبرز نموذج على هذا ما حدث عندما ارادت السلطة أن تطلبه للتجنيد وتفاجئه بأنه اصبح مجنداً طبقاً لقانون التجنيد الإجباري بالقرعة ، ونحن نعرف أن حملة الشهادات العليا كانوا معفيين من التجنيد، وكذلك من كانوا يستطيعون دفع البديل النقدي، وقد كان مصطفى كامل باشا قادراً على دفع البديل كما أنه كان حاصلًا على شهادة عليا هي شهادة الحقوق، ومع هذا وبالرغم من هذا فإن البيروقراطية الإنجليزية ومعها البيروقراطية المصرية كانتا قادرتين على اصطياص مصطفى كامل باشا بمكيدة بيروقراطية تستند إلى خطأ بيروقراطي مدير ، وذلك من قبيل أن يُطلب للتجنيد لأن الاقتراع أصابه، ويصل ما يسمى بإعلان الاقتراع إلى واحد من أهل بيته في غيابه ، وتمضي ثلاثة شهور دون أن يتخذ إجراء المعارضة ، ويطلب الإعفاء بسبب الشهادة أو بدفع البديل النقدي ، وبهذا يصبح تجنيده إجبارياً ، ويصبح ملزماً بتسليم نفسه للتجنيد لأنه لم يتقدم بالاعتراض في وقته.

أتمت الحكومة هذه الإجراءات (المخطط لها) في أثناء سفر مصطفى كامل باشا في أوربا فلما عاد وجد الإشعار الملزم له بأن يسلم نفسه للتجنيد في الغد باعتباره لم يعارض عندما طُلب، وبهدوء شديد فإن مصطفى كامل باشا استدعى شيخ الحارة وسأله، وأخبره شيخ الحارة أنه احتفظ بالاستدعاء إلى حين حضوره ، ومن فوره استكتب مصطفى كامل باشا شيخ الحارة إقراراً بهذا ، واحتفظ بهذا الإقرار معه.. وترك البيروقراطية تمارس خطواتها المرسومة سلفاً حتى إذا ما حدثت المواجهة أبرز إقرار شيخ الحارة بأنه لم يسلمه ولم يسلم أحداً من أهله إشعار الاقتراع الأول، وهكذا تمكن مصطفى كامل باشا من إحباط المحاولة البيروقراطية التي استهدفت حرите من خلال فهمه للإجراءات ، وتحصين نفسه بالإجراءات المضادة بعيداً عما هو معلوم بالضرورة وما هو منطقي.

.. وبعد أن انتهى من هذه الإجراءات الذكية بدأت حملة الاعلام الثوري الذي صور التواطؤ البريطاني الخبيث الذي سرعان ما تراجعت دولة الاحتلال عنه بعد أن كان رئيس مجلس القرعة قد تورط بالفعل ، و حول الأوراق إلى وزارة الحربية ، و بعد أن كتبت وزارة الحربية بكل ثقة إلى المحافظة لتجنيدِه لأنه لم يبد معارضته! .

التعالي غير المبرر من اليسار على مصطفى كامل

لعلنا ننطلق بعد هذا التوضيح لنذكر للقارئ السر الغريب في التعالي الذي يجده عند بعض المؤرخين المتأثرين بالنزعة اليسارية إذا ما تحدثوا عن مصطفى كامل، ومن الجدير بالذكر أولاً أن كل اليساريين يتعالون على مصطفى كامل لسبب واحد ووحيد لا يذكرونه، وهو أنهم حُفظوا وحفظوا أنه عثمانى النزعة ، وهم كما نعرف لا يحبون العثمانيين لأنهم لا يحبون الإسلام حتى وإن جاهروا بغير ذلك. و لعل كشفنا لهذا السر يريح أعصاب القراء الذين يحسون بالتلبيس ولا يعرفون سببا له .

موقف الوفديين منه لا يعدو أن يكون رد فعل

ومن الجدير بالذكر ثانياً أن الوفديين ومن يشابِعونهم لا يكرهون مصطفى كامل لكنهم يقللون من قدره ويقللون من قيمته، وهم لا ينطلقون في هذا عن فعل و إنما عن رد فعل ، ذلك أنهم يريدون بهذا على الهجوم الضاري المتوحش الذي شنّه أنصار الحزب الوطني على سعد زغلول وعلى وطنية سعد زغلول..

ومن المفهوم أن كلا من آليات الاحتلال البريطاني و مقتضيات الصراع السياسي و ديناميات الحركة الوطنية في ذلك الوقت كانت تحتم على الوفديين أن يسلكوا مثل هذا السلوك مع مصطفى كامل وحزب مصطفى كامل ، وليس في هذا تبرئة للوفديين ولا دفاعاً عنهم، لكننا لا بد أن نفهم مدى ما وصلت إليه الخصومة الحركية بين الوفد والحزب الوطني بفضل ما كان البريطانيون يتمتعون به من القدرة على توسيع شقة الخلاف، وكفي أن نذكر أن خروج الوفد و وزارة الشعب برئاسة سعد زغلول باشا من الحكم في نوفمبر ١٩٢٤ بسبب اغتيال السردار لي ستاك كان قد تم

على يد فدائيين ممن ينتمون إلى الحزب الوطني ، وأن الحزب الوطني كان في غاية السعادة في ذلك اليوم بسبب فقدان سعد الرئاسة وفقدان الوفد للحكومة ! ومع أن التعليق المعهود في مثل هذه الأحوال أن يقال ، وهذه آفة التعصب ، إلا أننا لا نقول ذلك ، بل لا نرى في مثل هذا القول وجاهة ، وذلك لسبب مهم هو أننا نريد أن تنشأ في بيئتنا كيانات تعرف معنى الحزبية وتعرف معنى الولاء والانتماء حتى لو عبّر الولاء والانتماء عن نفسه بالتعصب ، وذلك لأننا نؤمن أن التقدم لن يتحقق إلا بعد اجتياز مطبات مثل هذه التجارب المريرة والوعي بها.

رأي مدرسة التاريخ المادي

ونعود إلى سياقنا الأول لتأمل الحديث عن تناول المؤرخين لدور مصطفى كامل فنقول إن مدرسة التاريخ المصري المعاصر بما اتسمت به من سمات المنهج المادي كانت هي الأخرى مثل الوفديين واليساريين تنظر إلى مصطفى كامل باستعلاء ، ويكفي أن نذكر في هذا المقام قصة كتاب موجز أصدره أستاذنا الدكتور عبد العظيم رمضان في سلسلة تاريخ المصريين التي كان يرأس تحريرها عن مصطفى كامل ، ووصل في نقده لمصطفى كامل إلى أن وصف بعض إيمانه بأنه الوهم المقدس، وقد تولينا عرض هذا الكتاب والتعليق عليه في عدد مبكر من أعداد مجلة عالم الكتاب (منذ ٣٥ عاما) ولم نتورع عن انتقاد أستاذنا الدكتور عبد العظيم رمضان في استخدامه لتعبير الوهم المقدس ، و ربما زدنا في نقدنا وانتقادنا حتى إنه فيما يروى وجد أن من واجبه ، المحتم عليه ، أن يردّ على ما كتبناه في مقالنا، لولا أنه بما عرف عنه من سعة الصدر أعاد تقييم الأمور، ووجد أن تجاهل الأمر كلية أولى من الخوض فيه ، وبخاصة أننا لم نناقشه في صواب أو خطأ ، وإنما ناقشناه مناقشة لا تخلو من التاريخ لكنها كانت أقرب إلى أن تكون مناقشة في جمال اللفظ ودلالته ومناسبته.

تاريخ الرافي لحقبة من الحركة الوطنية من خلال كتابه عنه

على أننا لا بد أن نكرر للقارئ أنه على الرغم من هذا الاستعلاء الذي يواجهه مصطفى كامل على يد الماديين والوفديين واليساريين والغربيين ، وعلى الرغم من التجاهل المتعالي الذي يواجهه أيضا من الإسلاميين فإن الله جلّ جلاله رزقه بالمؤرخ عبد الرحمن الرافي الذي كفاه كل هذا ، ولو أن مصطفى كامل بعث من قبره وخُيّر بين أن ينال ما ناله على يد الرافي ، وبين أن ينال تقدير بقية المؤرخين جميعا لفضل ما رزقه الله به على يد عبد الرحمن الرافي المؤرخ العظيم الذي جعل من سيرته وجهاده محور التاريخ المصري الحديث كله ، والذي ألف عنه وعن خليفته محمد فريد بك كتابين عظيمين جعلهما بمثابة مجلدين أساسيين بل جوهريين في مجلداته عن التاريخ المصري الحديث.

اعتباره مصطفى كامل ومحمد فريد مرحلتين في تاريخ الوطن

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإنني احب أن أقص قصة عابرة بالغة التأثير في التدليل على قيمة ما رزق به مصطفى كامل باشا على يد الرافي المؤرخ من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها

قصة مهمة تميز بعض المراجع لدارسي التاريخ المصري الحديث ومحبيه ، وهي قصة طريفة على كل حال ، فقد كنا في ندوة تاريخية تتعلق بالعلاقات المصرية الفرنسية، وجاء ذكر حادثة فاشودة في حديث أحد الأساتذة المؤرخين وإذا به وقد نقل عن كثيرين ممن نقلوا عن الراجعي يعلق بما يعني أن الراجعي لم يخصص لهذه الحادثة ما تستحقه من اهتمام على نحو ما يفعل في كثير من الوقائع، ووجدتني أستاذن لأن أعلق مباشرة في الندوة بأن الراجعي خصص لها فصلاً كاملاً فوجدت الأستاذ يفتح عينيه من الدهشة ويهم بمقاطعتي ، فأشرت إليه إشارة مهذبة بأن يؤجل التعليق حتى أحادثه فقبل مشكوراً بما عُرف عنه من تهذيب.

وفي الاستراحة ذكرت له السر وهو أن عبد الرحمن الراجعي جعل تأريخه للسنوات من ١٨٩٢ وحتى ١٩٠٨ من خلال كتابه الذي حمل عنوان مصطفى كامل باشا وجعل تأريخه للسنوات من ١٩٠٨ وحتى ١٩١٨ من خلال كتابه الذي عنوانه محمد فريد بك وأن نهجه في التأريخ للوقائع السياسية في هذين الكتابين هو نفس نهجه في الكتب الأخرى ، لكنه انتهج في ترتيب أجزاء تاريخه ما يفعله من يطلقون أسماء الشوارع في العالم كله حين يخصصون جزءاً من شارع كبير باسم معين بينما الشارع متصل ببعضه ببعض اتصالاً عضوياً ، على نحو ما أن شارع نوبار هو نفسه يصبح شارع شريف، أو أن شارع عماد الدين هو نفسه الذي كان شارع محمد فريد ، أو شارع العروبة الذي هو نفسه طريق صلاح سالم بعد أن يغادر مصر الجديدة ، أو على نحو ما يفصل ميدان كبير بين مقطعين من نفس الاتجاه فشارع رمسيس هو نفسه شارع مريبت هو نفسه شارع قصر العيني إذا ما عبر ميدان التحرير على الرغم من أن هذا المثل لا يستوعبه الإنسان إلا بعد تفكير..

قال لي استاذنا يوماً بكل تواضع إنه كان يعرف أن محمد فريد هو عماد الدين بسبب موقع مكتبة الأنجلو لكنه لم يكن يعرف أن نوبار هو شريف وقد فهمها للتو أما أن يكون قصر العيني هو نفسه رمسيس فإنه يعترف أنه أخذ وقتاً حتى استوعبها.. وكذلك سيأخذ بعض الوقت حتى يعرف أن كتاب مصطفى كامل هو حلقة من حلقات كتب الراجعي ، وليس كتاباً مستقلاً بذاته تماماً مع أنه كتاب مستقل ، قلت له هل تسمح لي بأن أساعدك فقال: أرجوك ، قلت : هل تعرف كتاب الراجعي مصر والسودان في أول عهد الاحتلال قال نعم، قلت هل تعرف مداه قال نعم عشر سنوات على ما اعتقد قلت متى تنتهي؟ قال إذا كانت تبدأ في ١٨٨٢ فهي تنتهي ب ١٨٩٢ قلت ، و ١٨٩٢ هي بداية كتاب مصطفى كامل الذي يستمر في التأريخ لهذه السنوات حتى وفاة مصطفى كامل في ١٩٠٨. واني اذكر أن استاذنا هذا في ذلك اليوم صمّم على ألا يتركني ألا بعد أن يظهر لي أي مشعر من مشاعر الامتنان.. ثم استحلطني بالله أن أكتب مثل هذه المعلومات التي يسمونها في العلم بمفاتيح العلم.. ومع هذا فإني أعرف أنني لا أزال مقصراً إلى أبعد حد في أن أنجز ما رأى استاذنا أنه واجب عليّ.

الفصل الثاني : محمد فريد العطاء الذي لم يتوقف

زعيم مجمع عليه

يكاد محمد فريد بك ١٨٦٨ - ١٩١٩ يكون الزعيم المصري المجمع عليه من كل الاتجاهات المختلفة مع بعضها البعض ، فالذين يشعرون ببعض الخصومة مع مصطفى كامل باشا لا يشعرون معه بنفس القدر من الخصومة، والذين يشعرون بالخصومة مع سعد زغلول باشا لا يشعرون معه بنفس الخصومة فهو متقبل من الوفديين والشيوعيين ومن الذين يقرأون التاريخ في الكتب المتأثرة بالهوى، وهؤلاء جميعا يصورونه أو يبدون وهم يظنونهم أكثر اعتدالا من مصطفى كامل لأن صورة مصطفى كامل في أذهانهم هي الحماس المطلق، مع أن محمد فريد في الحقيقة لا يقل عن مصطفى كامل حماسا كما أنه لا يقل عنه عطاء، لكن العوامل المصورة لحركيات أو ديناميات العمل السياسي لا تلتزم كثيراً لا بالمنطق ولا بالتاريخ وإنما هي أقرب في طبيعتها إلى انفعالات متوقعة نتيجة مشاعر متولدة عن رواية أو قراءة.

وهكذا تبدو صورة محمد فريد وكأنه كان (وهو كذلك) رجلا ذا عطاء حتى مع نفسه ، وذا ولاء لصديقه أيا من كان صديقه ، وللدولة العثمانية التي ألف عنها كتابه الأشهر "تاريخ الدولة العلية"، وذا ولاء أيضا للأسرة العلوية بحكم كتابه الأول الذي الفه عن محمد علي باشا ، وبحكم أن والده نفسه كان ناظراً للدائرة السنية الخاصة بالخدوي.

نموذج للقوة ، و نموذج للعظة

من زاوية أخرى تتعلق بالمسلك السياسي المثالي فإن الزعيم محمد فريد يعد نموذجا للفعل المسئول كما أنه نموذج للقوة ، كما أنه نموذج للعظة والاعتبار ، أي أنه نموذج للإيجابين باختلاف طوائفهم و درجاتهم ونموذج أيضا لمن يحرض الناس على ألا يفعلوا فعله الحسن بمثالية زائدة فتؤذيهم الحياة بسبب الإخلاص الصادق ، وهو نموذج احترازي لاولئك الذي يصورون لأنفسهم بعض الصواب على أنه خطأ ، وأنه لا ينبغي لهم أن يقعوا في الخطأ، فقد كان محمد فريد صاحب وظيفة محترمة تدر عليه دخلا كريما، وتتيح له موقعا ممتازا فلما ترك هذا كله من أجل الوطنية مات شريداً غريبا حتى تبرع تاجر من الزقازيق بأن ينقل جثمانه من ألمانيا إلى مصر على نفقته ، وذلك لأن محمد فريد بك كان قد أنفق كل ثروته على الحركة الوطنية .

ولهذا السبب فقد كان الآباء أو الأشقاء الصغار في الأجيال السابقة يقولون لمن أصابه حب الوطن إن عليه أن يوازن بين متطلبات الحركة الوطنية و متطلبات حياته الأسرية هو نفسه بحيث لا تطغى الأولى على الثانية فيصبح مثل محمد فريد بك ، وأكثر من هذا بالطبع كان الزعيم محمد فريد نموذجا لكل من ينصح رجل القضاء الوطني الشاب ألا يفقد وظيفته ولا يفرض فيها، فإنه إن كتب رأيه وهو في النيابة التمسوا له العذر ، أما إن كتبه وهو وكيل نيابة سابق فمن الوارد أن ينال

حكماً أو أكثر بالحبس كما حدث مع محمد فريد نفسه، ولهذا فإننا نلاحظ أن الوطنيين الذين تركوا النيابة ووظائفها أو وظائف القضاء بعد محمد فريد لم يتركوا هذه الوظائف المرموقة بإرادتهم مثل محمد فريد ، وإنما أتركوها على غير إرادتهم لأنه صدر قرار احترازي من غيرهم بإبعادهم عن سلك النيابة والقضاء.

تعامله الذكي مع خلافة مصطفى كامل

لم يكن الفراغ الذي تركه مصطفى كامل هينا، فقد كان قد ترك بناء معنويا كبيرا لأنه كان حصيلة سنوات من الاجتهاد المخلص الذي جعله يتشيد طبقة بعد أخرى ، وهكذا رأى الزعيم محمد فريد بوطنيته الصادقة ونفسيته السوية أن يشرك معه أقران مصطفى كامل في خلافته، وألا يكون هو الخليفة الوحيد.

استعانتة بالشيخ جاويش وبعلي فهمي شقيق مصطفى كامل

وقد بدأ الزعيم محمد فريد هذا النهج مباشرة بأن أسند رئاسة تحرير اللواء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش بدلا من أن يحتفظ بها لنفسه كما أنه أعطى أدواراً متعددة لعلي فهمي كامل بك شقيق مصطفى كامل باشا، ونحن نلاحظ أن هؤلاء كانوا يتعاملون مع محمد فريد بتعاون شديد وإخلاص وحب مما جعل الحزب الوطني يحتفظ بمكانته في السياق الحزبي والسياسي على الرغم من تبدل الظروف ونهاية عهد وبداية عهد جديد، وعلى الرغم من فرض الحماية البريطانية مع ما هو معروف من العداء الأبدي بين الحزب الوطني والإدارة البريطانية في لندن أو القاهرة على حد سواء.

مقارنته بمصطفى كامل في الحماس

هل كان الزعيم محمد فريد أكثر حماسا من مصطفى كامل في بعض المواقف ؟ نعم كان أكثر حماسا من مصطفى كامل في بعض المواقف أو في معظم المواقف إذا أردنا الحق ، فموقفه في قضية التلغرافات موقف نادر، وكذلك موقفه من قانون المطبوعات وتقديمه لديوان وطنيتي للشيخ علي الغاياتي الذي لا يمكن وصفه بأقل من جذوة من الحماس المركز النقي .

فضل محمد فريد على حركة الوفد المصري

أما فضل الزعيم محمد فريد على حركة الوفد المصري وعلى سعد زغلول باشا فيجمع بين الفضل المباشر وغير المباشر، فأما الفضل المباشر فيتمثل فيما كان سعد باشا يحظى به من ثناء محمد فريد بك بل مجاهرته بترشيحه لسعد باشا ليكون من رجال الدولة المنتميين إلى الوطن الذين لا يقلون كفاءة عن الأجانب، ثم تأييده عن بعد لحركة الوفد المصري .

وأما الفضل غير المباشر فإن كل الخبرات المتولدة عن التجارب التي خاضها محمد فريد (في المرحلة السابقة على مرحلة زعامة سعد زغلول) قد تدفقت على هيئة خبرات في مسيرة الوفد المصري، وعلى سبيل التمثيل فإن اكتشاف الطريق المسدود (أي طريق مسدود أينما كان) قد وقر على حركة الوفد بقيادة سعد زغلول ما كان يتراءى لها من جدوى الجري وراء السراب، كما

ان اكتشاف الطريق المثمر وفر على الوفد الإهمال الذي كان كفيلا بان يضيع الفرص السانحة.. وهكذا.

الفضل الأهم هو الحفاظ على الكوادر الوطنية بنقاء نادر

على أن هناك فضلاً ثالثاً أهم من هذين الفضلين وهو تزويد الوفد بالكوادر الوطنية التي تربت في الحزب الوطني بالقرب من مصطفى كامل أو محمد فريد أو كليهما والتي أصبحت بعد عدد قليل من السنوات بمثابة أفضل عناصر الوفد في طبيعته الشعبية الجماهيرية ذات الروافد التكنوقراطية والفكرية الاصلية التي تجلت قيمتها بوضوح و إشراق بعد انشقاق الأحرار الدستوريين.

ومن المفيد أن نذكر أن الرجلين الأولين في البروتوكول في الوفد بعد وفاة سعد زغلول وفي نهاية العشرينيات و بداية الثلاثينيات تخرجاً من مدرسة الحزب الوطني وهما رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا ورئيس مجلس النواب ويصا واصف باشا .

وقد كان ويصا واصف باشا من خالص مصطفى كامل باشا لا من أصدقائه فحسب ، وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإن وجود ويصا واصف باشا نفسه في الهيئة الإدارية للحزب الوطني هو أكبر دليل على أن الحزب الوطني كان يضم الأقباط المصريين وأنه كان لهم مكانة متقدمة فيه وذلك على عكس ما لا يزال يروج زوراً من أن الحزب الوطني كان معادياً للأقباط ، وأنه كان أقرب ما يكون إلى حزب إسلامي متطرف، وهي دعايات عسكرية المنبع على كل حال ، وقد صادفت هوى اليساريين واللا دينيين.

مطالبته المبكرة بما يسمى العصيان السياسي

كان الزعيم محمد فريد منتبهاً بذكاء إلى خطورة استمرار التعاون مع المستعمر على أية صورة من صور السياسات التنفيذية الداخلية ولهذا فإنه كان سابقاً لزمه حين طالب في مرحلة مبكرة بما يسمى بالعصيان السياسي أي أن يمتنع المرشحون للوزارة عن قبولها ، وهي فكرة ذكية تطورت في بداية ثورة ١٩١٩ وكانت السيدات المصريات من طبقة الحكام والمرشحين للوزارة هن مَنْ طورنها بحيث اجتمعن و دعين أزواجهن وأصدقاء أزواجهن إلى الامتناع عن قبول الوزارة، أما محمد فريد بك فكان يقول هذا المعنى بكل وضوح قبل ١٠ سنوات من دعوة عقيلات الوزراء إلى التحمس لهذه الفكرة ، بعد أن تبنتها الزعامات الوطنية ، وقد قال الزعيم محمد فريد بها صراحة من ١٩٠٩ ، وقال بكل وضوح إن هذا الإعلان من جانب الوزراء كفيلاً بأن يجعل السلطة تعلن الدستور وأن ينال المصريون حقوقهم.

تشجيع النقابات العمالية والمظاهرات الشعبية المنظمة

والواقع أن الزعيم محمد فريد كان يعول تعويلاً ذكياً على مثل هذا السلوك السلمي المنظم الهادف ، ولهذا فإنه كان أيضاً من أول من سعوا إلى تشجيع تشكيل النقابات العمالية بل وشارك

في دعم تأسيسها وهو ما حدث على يديه في ١٩٠٩، وقد خطا محمد فريد خطوة أخرى في هذا السبيل السلمي المنظم حين دعا إلى المظاهرات الشعبية المنظمة من قلب مدينة القاهرة.

هو صاحب فكرة التوكيلات التي قامت عليها مشروعية الوفد

من إحقاق الحق أن نقول إن محمد فريد كان هو صاحب فكرة التوكيلات التي أخذ بها الوفد المصري في ثورة ١٩١٩ وبنى عليها حركته، وكعادة كل رائد فإن ريادته أهملت في ظل الحديث عن أصحاب التطبيق العملي الذي حقق الذبوع والانتشار، ومع هذا فإن أحداً لا يستطيع أن يتجاهل أن الزعيم محمد فريد كان ناجحاً نجاحاً مذهلاً حين بدأ فكرته لأول مرة قبل الوفد بعشر سنوات ذلك أنه استطاع أن يجمع في الدفعة الأولى من الطلبات الموقعة من الأهالي ٤٥ ألف توقيع وهو رقم مدهل في ذلك الوقت.

المدارس الليلية

لم يكن هذا هو كل ما تفوق فيه الزعيم محمد فريد واستغرق وقته، لكنه كان مشغولاً بفكرة نشر المدارس الليلية التي أنشأها في أحياء القاهرة والتي تولت تعليم الفقراء من الصغار كما تولت محو أمية الكبار في الوقت ذاته، وقد كان الشعب المصري من الذكاء والعطاء بحيث تطوع أبناؤه القادرون بعلمهم ووقتهم من أجل إنجاح فكرة و أداء هذه المدارس التي شارك فيها المحامون والأطباء مشاركة فاعلة فلم تكن أعداد المشتغلين بمهنة التدريس في ذلك الوقت كافية للقيام بمثل هذا العمل الجبار.

مقدمته لديوان وطنيتي

ربما كان من المهم أن نسأل عن السبب الذي جعل رجل القضاء والنيابة يرون في مقدمة محمد فريد لديوان شعر الشيخ الغاياتي ما يستلزم محاكمته، والحقيقة أن أفضل إجابة على هذا السؤال هو أن نقرأ فقرات من هذه المقدمة الصريحة التي اتهم فيها محمد فريد الحكم الاستبدادي بأنه أمانت الحماس والشعر الحماسي.

ومن العجيب أن القضاء المصري لم يجد مانعاً في أن يحكم على أحد أبنائه بالسجن ٦ شهور بسبب مثل هذا النص، بل وأن يجعله ينفذ مدة السجن كاملة، ولهذا فإن محمد فريد خرج من السجن ساخطاً على الحكومة، وإن كان قد عبر عن الحكومة بلفظ الأمة المصرية لسبب لست أدريه.

عاد ليسجن

يروى أنه كان في وسع الزعيم محمد فريد أن يتجنب السجن بالأبداً يعود إلى مصر لكن ابنته فريدة هي التي أشارت عليه بالعودة، حتى وإن كانت العودة تستلزم سجنه فهذا أشرف في رأيها من أن يقال إنه هرب.

من رسالة محمد فريد لابنته وهو في السجن

" مضي علي ٦ أشهر في غيابات السجن، ولم أشعر بالضيق إلا بعد اقتراب خروجي، لعلمي أنني خارج إلي سجن آخر، وهو سجن الأمة المصرية، الذي تحده سلطة الفرد ويجرسه الاحتلال،

فأصبح مهدداً بقانون المطبوعات ومحكمة الجنايات، محروماً من الضمانات التي منحها القانون للقتلة وقطاع الطرق".

في المرة التالية فضل النفي

ومع هذا فإن تجربة السجن جعلت الزعيم محمد فريد يغير رأيه في المرحلة التالية مباشرة، حيث فضل النفي الاختياري وسافر بإرادته حين علم أن الحكومة تنوي اعتقاله ،

سفره الأخير

غادر الزعيم محمد فريد مصر سرّاً في ٢٥ مارس ١٩١٢ لتأكده من عزم الإنجليز والحكومة سجنه، فقرر مع قيادات الحزب الوطني أن يغادر مصر لمواصلة كفاحه في الخارج من أجل الاستقلال. وقد ظل في خارج مصر إلى أن توفي في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ أي بعد يومين من الذكرى الأولى للقاء سعد زغلول باشا وزميليه بالمعتمد البريطاني فيما اعتبر بعد هذا عيداً للجهاد الوطني.

دعوته السياسية

- شارك محمد فريد في مؤتمر السلام في صيف ١٩١٢ ولاهاي في ١٩١٣.
- اهتم بمعنى سيادة المصريين في حكومتهم معارضا ما صرح به البريطانيون بأن لهم اليد العليا في الدواوين وهو ما يتعارض مع أول مراتب الاستقلال.
- اهتم بحرية الصحافة من خلال مقاومة قانون المطبوعات وما يترتب على نصوصه من تقييد للحرية.

إدراكه لفاعلية القوى الاجتماعية

كان محمد فريد يعبر بكل الوسائل عن اقتناعه بضرورة توسيع قاعدة المنتمين للحزب الوطني الذي تأسس قبل وفاة مصطفى كامل بأربعة شهور فقط وعلى الرغم من انتمائه الأرسطراطي فإنه كان مؤمنا كل الإيمان بالعمال والفلاحين والصناع اليدويين الأحرار وطلاب مدارس الشعب والموظفين البسطاء الذين يشغلون الوظائف الدنيا في الجهاز الحكومي المصري الخاضع تماماً لسطوة الاحتلال.

كيف بلور محمد فريد أهدافه الأساسية

من المهم أن نلخص أهداف الزعيم محمد فريد السياسية لأن المراجع التاريخية تناولها بطريقة مختلفة تختزل بعضها بل تهمله (عن قصد معروف وبات أكثر وضوحا الآن بعد مائة عام من رحيل الزعيم محمد فريد) ويمكن لنا أن نقول إن أهدافه كانت بالترتيب:

- الجلاء البريطاني عن مصر
- الدستور والحياة النيابية
- التمسك بالجامعة الإسلامية
- توكيد وحدة وادي النيل

فكره الاجتماعي والاقتصادي

شملت ممارسات محمد فريد النشطة في الحياة العامة كثيرا من الميادين التي تعبر عن الرغبة العارمة في الاستقلال والتقدم ويمكن لنا أن نحصر بعض المجالات التي تطرق إليها محمد فريد بقلمه أو فكره أو جهوده طويلة المدة التي قدر له أن يكون له فيها صوت مسموع من خلال الصحافة ومن خلال الحزب الوطني:

- ناقش مشكلة الرهون الزراعية وقاده هذا إلى ضرورة البحث في نظم التعاون والنظام المصرفي الملائم لمصر.
- اهتم بحقوق العمال وبخاصة حق الإضراب، والحقوق المرتبطة بمخاطر المهنة، كما في مهنة الجزارة.
- دعم الرياضة، وكرة القدم، والنادي الأهلي.
- دعم فكرة نادي المدارس العليا، ومنتديات التنشيف .

قيمه كمؤرخ

تنطق كتب محمد فريد التاريخية الثلاثة بقدرته على كتابة التاريخ بأسلوب علمي موضوعي بعيداً عن الصيغ البيانية التقليدية، ومنتصراً لتقنية الحديث عن الحدث التاريخي في سياقه، وعلى التسلسل التاريخي، وعلى إدراك روح الشعب والقوى الاجتماعية بعيداً عن المنهج الذي يحصر التاريخ في نزوات الحكام أو أفكارهم، أو المنهج الآخر الذي يحصره في أليات حركة القوى الاجتماعية، ومع أنه لم يصل إلى المستوى الذي أصبحت تحققه المدارس التاريخية التي انتشرت بعد وفاته فإنه كان في عصره مؤرخاً متزناً قادراً على الإنصاف وهو أقصى ما يمكن طلبه من مثقف قانوني مثله في مثل ظروفه.

مؤلفاته

- "البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة المحمدية"، والذي تحدّث فيه عن أهم إنجازات محمد علي باشا، وقد كتب هذا الكتاب سنة ١٨٩١
- تاريخ الدولة العلية العثمانية: والذي بيّن فيه الدور المهمّ الذي لعبته الدولة العثمانية في حماية الدين الإسلامي، والدفاع عنه، وقد أصدره سنة ١٨٩٤
- تاريخ الرومان: عن تاريخ الدولة الرومانية.
- رحلة إلى بلاد الأندلس ومراكش والجزائر.
- تاريخ الرومانيين.

وصيته

لما ساءت الحالة الصحية لهذا الزعيم المجاهد، وأدرك أن ساعة الموت اقتربت، قال لمن حوله ومنهم صديقه الدكتور عبد العزيز عمران وإسماعيل لبيب: «قضيت بعيداً عن مصر سبع

سنوات، فإذا مت فضعوني في صندوق، واحفظوني في مكان أمين، حتي تتاح الفرصة لنقل جثتي إلي وطني العزيز، الذي أفارقه وكنت أود أن أراه".

وفاته وجنازته

روى الرافعي أنه دخل في غيبوبة وأسلم الروح في منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء السبت ١٥ نوفمبر، عام ١٩١٩.. و يؤكد الرافعي أنه في اليوم التالي شيع المصريون جنازته بما يليق بمنزلته، وتم وضع جثمانه في تابوت حديد لكي يمكن نقله إلي مصر عند سنوح الفرصة عملاً بوصيته، وتم حفظ التابوت في كنيسة بالقرب من المقبرة، وبقي وديعة لدي حارس الكنيسة ، وفي يونيو ١٩٢٠، سافر الحاج خليل عفيفي التاجر بالزقازيق وعاد بالجثمان علي نفقته الخاصة.

قصة تضحيات الحاج خليل عفيفي

من الإنصاف أن نشير إلى أن الحاج خليل عفيفي التاجر في الزقازيق لم يكن موسراً للدرجة التي تجعله يتكفل بنقل جثمان محمد فريد من أوروبا إلى مصر على نفقته بل إنه باع كل ما يملك من أجل هذا الهدف النبيل وسافر بنفسه فأحضر الجثمان ، وعاد به إلى مصر.

تصوير صبري أبو المجد لتضحيته

كتب الأستاذ صبري أبو المجد في كتابه «محمد فريد، ذكريات لا مذكرات»: "..... من الشخصيات النادرة الفذة التي تشرق بها صفحات التاريخ من جيل إلي آخر، ولد كما يولد أبناء الأمراء في فمه ملعقة من ذهب، عاش كما يعيش أبناء الحكام الكبار، بين القصور العالية المليئة بالخدم والحشم، لا يعرف وما ينبغي له أن يعرف شيئاً عن الشعب أملاً وألماً، وتدرج كما يتدرج أبناء الكبراء والحكام الإقطاعيين الكبار في الوظائف التي تقربه من طبقة الحكام، غير أنه بعد فترة طويلة من الدراسات والقراءة والتأمل وطبيعة تكوينه الشخصي والنفسي قربته تماماً من الشعب وآمال الشعب وآلام الشعب"..
"كان لوالده ألف ومائتان فدان، وكان له هو قصر في شارع شببرا مساحته ٥ أفدنة من أراضي البناء، و عمارتان بشارع الظاهر، وأنفق كل ذلك علي الحركة الوطنية، ومات فقيراً في غربته" .

الباب الثاني : الصالون الفصل الثالث: الأميرة نازلي فاضل الأم البيولوجية لثورة ١٩١٩

لا أزال أؤمن إيماناً عميقاً بأن جوهر التقدم الاجتماعي والعلمي والسياسي في المجتمعات الإسلامية لا يتحقق إلا عن طريق السيدة المتعلمة ؛ ولا تنطلق شرارته إلا بها ؛ و من الأمثلة التي كثيراً ما ذكرتها أن الإمام العظيم ابن تيمية نفسه ينسب إلى جدته العظيمة التي كانت نموذجاً للعلم المتفاعل مع المجتمع. وفي التاريخ البيولوجي للثورات فإن بذور نجاح الثورة تكون قد أُلقيت قبل عقدين أو ثلاثة من الزمن ، وإلا فإن الثورة سرعان ما تخوض الكر والفر مع الثورات المضادة ؛ علي نحو ما رأينا ونرى .

و من حسن حظ ثورة ١٩١٩ أن جوهر مقدماتها الفكرية كانت قد صيغت بإتقان وعصرنة وروحانية علي يد سيدة عظيمة أتيحت لها الإقامة في أربع عواصم ناهضة في القاهرة و إسطنبول و باريس وتونس ، بل إن زوجها الثاني الذي كان يصغرها في السن وصل إلى رئاسة وزراء تونس أما في القاهرة فقد كانت هي وليس غيرها بمثابة الأب الروحي ولا نقول الأم الروحية فحسب لثورة ١٩١٩ وجذورها ، بدءاً من الأستاذ جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده و انتهاء بالزعيم سعد زغلول باشا و أقرانه .

الدور الحضاري الذي لعبته

قدر للأميرة نازلي فاضل (١٨٥٣ - ١٩١٣) أن تلعب في نهاية عصر الدولة العثمانية ومحيط هذه الدولة دوراً حضارياً ونهضوياً ينتمي إلى مجموعة أدوار الاتصالات العصبية التي تنسجها وتنظمها طبيعة التكوين العقلي البشري من خلال ما يناظر دور الضفيرة العضدية التي زود الله بها بنيتنا البشرية ، وهو دور جوهري في بناء روح النهضة التي عبرت عنها ثورة ١٩١٩ .

ثورة ١٩١٩ ليست إلا دولة تجديد للأمة الإسلامية

ولعل القراءة المتأنية للدور الذي رزقت هذه الأميرة تأديته يدلنا على الحقيقة الجوهرية التي غيبتها المسلمون المعاصرون من وعيهم كما غيبوها عن خطابهم على حد سواء وهي أن هذه الثورة الشعبية التي قادتها نخب واعية لم تكن في حقيقة أمرها إلا تجديداً للدولة الإسلامية بعدما تأمرت القوى الغربية على دولة الخلافة العثمانية في إسطنبول ، ومع أن أحداً لم يشغل نفسه بأن ينتبه إلى حدود الرابطة العضوية بين الدولة العثمانية ومجموعة الدول الإسلامية المتعاصرة والناهضة التي نشأت نتيجة ثورة ١٩١٩ والثورات المشابهة لها ، فإن حقائق الأرض واللسان تتفوق على كل دعاوى التفلسف المستندة إلى أيديولوجيات محدودة التأثير ، مهما طال الاعتقاد فيها من أهل الحق والباطل على حد سواء ، ومهما كان هذا الاعتقاد عن حسن نية أو سوء نية .

أثرها الحقيقي في التمهيد لثورة ١٩١٩

ومع أن الأميرة نازلي فاضل ماتت قبل ثورة ١٩١٩ بستة أعوام ، فإن أثرها في اندلاع ونجاح الثورة باق حتي وإن لم ينتبه إليه المؤرخون بالقدر الكافي ، علي الرغم من تشابك هذا الدور الذي أدته هذه السيدة الأميرة مع سلطة الخلافة العثمانية ورجالها ومع أطراف السلطة الدنيوية والمستعمرين المتنافسين والحركة الوطنية التي لم تكن قد عرفت طريقا محددا للخلاص . وعلى مدى تاريخ أسرة محمد علي باشا وأولاده، فإنها لاتزال بمثابة أشهر أميرات الأسرة العلوية فيما عرف عنها من علاقات اجتماعية، ومشاركة سياسية.

ومن الطبيعي أن تجد الكتابات التي تعرضت لدور هذه السيدة منشغلة بالحديث عن آرائها في قضايا المرأة والحجاب والاختلاط وما إلى ذلك ، بينما أن هذه القضايا كلها لا تمثل ما يزيد على واحد في الألف من الدور الذي قدر الله لها أن تؤديه في عصر الانتقال بالحياة السياسية الإسلامية من عصر الانعزال المفروض إلى عصر المشاركة الفاعلة مهما كان الفعل مشوبا بالفشل أو الاضطراب .

ومن الطبيعي أن تجد التصنيف الغربي لجهدا وهو يحصر توصيف و وصف هذا الدور ليستقر ويقع في محيط الآراء الاجتماعية المتعلقة بالمرأة فحسب ، وذلك ليشغل الأذهان عن هذا النجاح السياسي الساحق الذي حققته سيدة مسلمة ، بما لم تستطع أن توازيه فيه أية قيادة مناظرة لها في عصر الملكة فيكتوريا ومعاصريها من الساسة الغربيين .

التعريف بوالدها و نشأتها

الأميرة نازلي فاضل هي كبرى بنات الأمير مصطفى فاضل ١٨٣٠- ١٨٧٥ ابن القائد العظيم إبراهيم باشا وهو الأخ غير الشقيق للخديو إسماعيل، وهو أيضا الأمير الذي ينسب إليه المسجد المشهور باسمه في القاهرة والقائم في شارع بورسعيد (الخليج المصري سابقا) ما بين ميداني باب الخلق والسيدة زينب ، وهو ذاته المسجد الذي كان القارئ الأشهر الشيخ محمد رفعت يتولى قراءة القرآن الكريم فيه، وقد كان لها خمس أخوات، وعشرة أخوة ذكور، منهم ثلاثة توفوا أطفالا، وهي الابنة الوحيدة لأمها دل آزاد هانم إحدى زوجات الأمير مصطفى فاضل ، وأشهر أخوتها هو الأمير حيدر فاضل الذي عاش في باريس وكان معدوداً من أدباء اللغة الفرنسية.

ولدت الأميرة نازلي فاضل في مصر حيث كان والدها الأمير مصطفى فاضل بمثابة المنقف الأول بين الطبقة الحاكمة في مصر، لا بمكتبته الفريدة الضخمة فقط، بل بعقله الكبير، ومعلوماته الغزيرة، وكان حين مولدها ولياً للعهد، وفي عام ١٨٦٦ تغير نظام الوراثة في مصر لينتقل الحكم من أكبر أبناء أسرة محمد علي إلي أكبر أبناء الخديو إسماعيل، وبالتالي انتقلت ولاية العهد من الأمير مصطفى فاضل إلي الأمير (الخديو) محمد توفيق (الذي تولى الخديوية بعد عزل والده). ومن الجدير بالذكر أنه ولد قبل ابنة عمه الأميرة نازلي بعام واحد .

انتقال والدها إلي الأستانة ومكانته في الدولة العثمانية

وهكذا فقد والدها مصطفى فاضل الأمل في عرش مصر وأصبح أميراً من الأمراء المتعددين، فأثر الانتقال إلي الأستانة حيث عمل في خدمة الدولة العثمانية، وتقلب بين عدد من الوزارات و منصب الصدر الأعظم، وهو المنصب الأعلى في هذه الدولة، وقد انتقلت نازلي مع والدها الأمير مصطفى فاضل إلي الأستانة، وهكذا أتيح لها أن تتربي علي طريقة السيدات التركيات، اللائي كن في ذلك العصر أكثر رقياً وحرية من السيدات في مصر، وقد تلقت تعليماً غربياً في البيت، وفي معاهد تعليم اللغات الأجنبية في إسطنبول، وأتقنت اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية مع العربية والتركية.

وبعد عدة سنوات في خدمة الدولة العثمانية أثر والدها الأمير مصطفى فاضل ترك المناصب بعد ما اختلف مع السلطان عبد العزيز وحاشيته، واستقر الأمير مصطفى فاضل في باريس.

رسالة والدها إلي السلطان عبد العزيز

كتب والدها الأمير مصطفى فاضل للسلطان عبد العزيز رسالته الشهيرة المطولة التي ضمنها دعوته للإصلاح ومبادئه بالحرية، وبهذه الرسالة انضم الوالد إلي حركة تركيا الفتاة وعرف بأبي الأحرار.

ولهذا السبب كتب عنه الشاعر ولي الدين يكن في كتابه الجميل «المعلوم والمجهول» وهو نفسه الكتاب الذي زينه بصورته، كما أهدي الكتاب إليه، وكان عنوان رسالته: «من أمير إلي سلطان»، وقد ظلت الأميرة نازلي فاضل على مدي حياتها فخورة بهذه الرسالة، وقد أشرفت الأميرة نازلي فاضل علي ترجمتها وتوزيعها.

زواجها الأول

تم الزواج الأول للأميرة نازلي (سنة ١٨٧٣) من خليل باشا شريف الذي أصبح وزيراً للخارجية الدولية العثمانية العلية، وكان في ذلك الوقت قد عين سفيراً للدولة العثمانية في باريس، فسافر إليها مع زوجته الأميرة نازلي لتبدأ مرحلة مهمة في حياتها، (يذكر محمد فريد باشا أن أخت زوجها علي باشا شريف هو الذي كان سفيراً للدولة العلية بباريس).

وتنقلت الأميرة نازلي بين العواصم الأوروبية، لكنها عرفت بإقامتها في باريس بالذات، حيث كانت فترة إقامتها فيها أطول من غيرها، وحيث نقلت منها فكرة الصالون (أو النادي) إلي قصرها في مصر فيما بعد، وحيث تعرفت وأعجبت بدعاة الحرية والإصلاح من مؤسسي جمعية «العروة الوثقى» الذين كانوا قد أثروا الإقامة في باريس كالأستاذ جمال الدين الأفغاني، والأستاذ الإمام محمد عبده.

رسالتها للسلطان عبد الحميد

ويبدو أن هذا المجد الحاضر قد شجعها [فيما بعد] على أن ترسل هي الأخرى رسالة مشابهة إلي السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٢ أكتوبر ١٨٩٦، وقد روي المؤرخ قليني فهمي باشا في

كتابه «أعمال الملوك» أن أحمد فتحي زغلول باشا هو الذي قام بترجمة الرسالة بطلب منها، وكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد، كما كانت الترجمة والطبع في عهد السلطان عبد الحميد أيضا .

وقد نشر ولي الدين يكن رسالتها نقلاً عن جريدة «خدام» التي كان يصدرها شقيقه يوسف حمدي يكن.

وبعد وفاة والدها الأمير مصطفى فاضل عادت الأميرة نازلي فاضل للإقامة في مصر ، وإن ظلت كثيرة التردد على تركيا وأوروبا.

فضل السلطان عبد الحميد في استحوادها على مكائنها

كانت علاقة الأميرة نازلي فاضل بالسلطان عبد الحميد نموذجاً لسعة صدر هذا السلطان العظيم وقدرته على تمكين أصحاب الرأي من نشر آرائهم المعارضة ، ونحن نفهم من نصوص بعض المصادر أن اختلافها الموروث مع السلطان عبد الحميد الثاني قد تحول في فترة من الفترات إلي وفاق، وأن هذا حدث بعد لقاء تم بينهما، بناء علي دعوته، وكانت متوجسة للشر فاتخذت احتياطاتها، لكن السلطان استطاع استمالتها للتعاون معه.

ويبدو أنها قامت في فترة ما بأدوار مهمة بين السلطان عبد الحميد وبين بعض الوطنيين الأحرار. ومع هذا فإن الشائع في أدبياتنا (لأسباب معروفة) أن خلاف الأمير مصطفى فاضل وابنته الأميرة نازلي فاضل مع الخلافة العثمانية تواصل باطراد من عهد السلطان عبد العزيز إلي عهد السلطان عبد الحميد الثاني .

علاقتها بأسرتها العائلة المالكة في مصر

كذلك فإن من الشائع أن الأميرة نازلي ظلت ضد العائلة المالكة في مصر، وبخاصة عمها الخديو إسماعيل وابن عمها الخديو توفيق ، وفي الواقع فإن هذا غير صحيح تماماً فقد كان الخديو إسماعيل هو الذي أمر بتجهيز قصر الحصوة (قصر الزعفران فيما بعد) لأسرة أخيه وغريمه الأمير مصطفى فاضل كما أن الخديو توفيق كان هو الذي استجاب لشفاعتها في شأن الشيخ محمد عبده وأقرانه . .

وفي كل الأحوال وفي ظل ما كان متاحاً من مساحات للحرية في الدولة العثمانية و في مصر ، فقد اشتركت الأميرة نازلي في كثير من الأحيان في تشجيع بعض الحركات المعارضة للحاكم لا للحكم العثماني، كما اشتركت في بعض المؤتمرات المنادية بالإصلاح والدستور، وناصرت حركة «العروة الوثقى» بباريس.

دعمها لثورة عرابي

كما عرف واشتهر عن الأميرة نازلي فاضل حرصها علي دعم الزعيم أحمد عرابي ومساندتها له وهو الدعم المادي والتمويلي الذي استمر للنهائية في معركة النبل الكبير.

نفوذها في عهد الخديو عباس

أصبحت الأميرة نازلي مع الأيام قوية الانجذاب إلى الحياة السياسية، وفي عهد الخديو عباس حلمي الثاني الذي هو حفيد عمها ظلت مكانة الأميرة نازلي فاضل محفوظة، بل ربما ازدادت نفوذاً وتأثيراً بحكم صالونها الذي ترسخ وجوده، وبحكم صلتها القوية بالإنجليز الذين كانوا من رواد صالونها، وكان بعض قادتهم بمثابة أصدقاء شخصيين لها يأخذون برأيها في الأحوال السياسية. وفي هذه الفترة توثقت علاقة الأميرة نازلي بجمال الدين الأفغاني لدرجة أنه قال عنها: "إنها تمثال الكمال والجمال، حضرة البرنسيس التي لها من قلبي المنزل الأبهى، والمقام الأسنى".

رواية عثمان أمين عن علاقتها بالإمام الشيخ محمد عبده

أما الإمام الشيخ محمد عبده فقد توثقت علاقته بها بعد عودته من المنفى (١٨٨٨)، خاصة بعد أن علم بما كان من مساعيها في إصدار العفو عنه لدي الخديو توفيق، واللورد كرومر، وقد دعتة إلى حضور صالونها فتردد علي الصالون، وكثر تردده، وتوثقت العلاقة بينهما، ويرجح الدكتور عثمان أمين وهو أحد كبار أساتذة الفلسفة و أحد الذين أرخوا لحياة الأستاذ الإمام محمد عبده، أن الأميرة هي التي حثته علي تعلم الفرنسية ودراسة الأدب الفرنسي دراسة متعمقة.

رواية الشيخ مصطفى عبد الرازق

وفي بحث عن المرأة في حياة الشيخ محمد عبده يروي الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الأميرة كانت تكن للإمام محمد عبده كل الحب والإجلال.

روايتان للأستاذ أبو القاسم كرو

وفي إطار الروايات المتعددة والثرية التي شغلت بحياة الأميرة عن دورها السياسي ، فإن الأستاذ أبو القاسم كرو مؤرخ حياة الأميرة نازلي فاضل يعتقد أن الشيخ محمد عبده كان يحمل لنازلي ما هو أكثر من الإعجاب، وأنه كان محباً لها، وربما أكثر من ذلك، وهو يعتقد أن رحلته الثانية إلي تونس (١٩٠٣) كانت من أجلها وأنه كان ضيفاً عليها (!!)

لكن الأستاذ أبو القاسم كرو أشار بعد ذلك في كتابه عن الأميرة إلى أن زيارة الشيخ محمد عبده دامت ١٣ يوماً فقط، مصححاً ما كان هو نفسه قد أخطأ فيه حين كان أشار (في مقالات سابقة علي نشره لكتابه) أن الزيارة استمرت ٣ شهور.

علاقتها بسعد زغلول و قاسم أمين

وقد قدم الشيخ محمد عبده للأميرة نازلي فاضل اثنين من تلاميذه، وهما سعد زغلول وقاسم أمين، فكان لها أثر عميق في حياة كل منهما.

أما سعد زغلول باشا، فقد توثقت صلته بالأميرة نازلي، وازدادت وثوقاً مع الأيام، وقد وكلته عنها كمحام، (ومن الطريف أن محمد فريد كان هو الآخر محامياً لها) ثم أقنعتة بضرورة تعلم اللغة الفرنسية، وقد أدركت نازلي جوانب القوة في شخصية سعد، وحرصت على أن تدفعه إلى الأمام، فرشحته زوجاً لصفية هانم ابنة مصطفى باشا فهمي رئيس الوزراء.

رواية الأستاذ مصطفى أمين

ومن الجدير بالذكر هنا أن الأستاذ مصطفى أمين كان يعتقد أن الأميرة نازلي فاضل كانت تريد سعداً لنفسها لا لصفية زغول.

محمد فريد يؤكد دورها في تزكية سعد زغول باشا

ويري كثيرون أن الأميرة نازلي هي التي أشارت علي الإنجليز بضرورة الإفادة من سعد زغول باشا في وظائف القضاء والحكومة، ويشير الزعيم محمد فريد في مذكراته إلي أنها كانت وراء إقناع لورد كرومر بتعيين سعد باشا (وكان لا يزال محامياً) مستشاراً بمحكمة الاستئناف.

ثقافتها و شخصيتها الفريدة

كانت الأميرة نازلي فاضل تعرف لغات عديدة، وكانت لها حظوظ كثيرة من ثقافات عالمية، وكانت تجالس الرجال وتجادلهم بعمق في صالونها، وقد عرف من رواد هذا الصالون كثيرون: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وسعد زغول وقاسم أمين، وأحمد فتحي زغول، ومحمد بيرم، ومصطفى بيرم، وسليم سركيس، وفارس نمر، وعلي يوسف، وولي الدين يكن، ومحمد فريد، ومحمد المويلحي، وقليني فهمي، وأديب إسحاق.

ثناء الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

ظلت الأميرة نازلي فاضل تتمتع بجاذبية عالية، وقد جمعت كل عناصر الجاذبية الشخصية والعائلية والفكرية، وبالإضافة إلي زيجتها، فقد عرض عليها أن تتزوج أكثر من مرة لكنها رفضت، وكان من خطابها حسين فخري باشا، وبعض الأمراء. وقد وصفها الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في مقاله عن المرأة في حياة الإمام محمد عبده بأنها «كانت ساحرة النظرات، عذبة الملامح، رشيقة القوام، ناصعة الجبين، ذات ثغر رقيق يفتر عن ابتسامة دائمة فيها معنى الألم العميق، والسخرية بالألم، ومعنى العزيمة الماضية، ومعنى الرجاء لا يصل إليه اليأس».

تأثر سعد زغول باشا بوفاتها

ويتضح لمن يتدارس مذكرات سعد زغول باشا أن صداقته بالأميرة قد استمرت حتي وفاتها، وملتقت بعض المؤرخين إلي حقيقة مهمة وهي أن سعد زغول باشا قد انقطع عن كتابة مذكراته التي كان يدونها بانتظام لسنوات طويلة مدة ستة أشهر كاملة غداة وفاة الأميرة، لكنه لم يذكر أن وفاتها كانت سبباً لذلك.

أثرها في فكر قاسم أمين

تأثر قاسم أمين بالأميرة نازلي فاضل وعقليتها وحضورها تأثراً كبيراً حتي إنها في نظر معظم المؤرخين الاجتماعيين تكاد تكون هي المسئولة الأولى عما اشتهر به هذا المفكر من آراء في شأن المرأة، ويرى الأستاذ أبو القاسم كرو أن الأميرة نازلي هي التي غيرت رأي قاسم نحو المرأة وأن هذا قد حدث بعد أن نشر قاسم أمين مقالاته وكتابه الفرنسي الذي يرد فيه علي دراكور، ذلك أنه كان ضد المرأة في كتابه كما كان في مقالاته الأولى.

كان داركور قاضياً فرنسياً يعمل بالمحاكم المختلطة، وكان قد ألف كتاباً بعنوان «سر تأخر المصريين»، وكان هذا الكتاب من أهم الكتب التي تصدي لها صالون الأميرة نازلي، وقد استحدثت نازلي قاسم أمين علي الرد عليه بالأسلوب العصري الذي اكتسبته في الغرب.. أي الأسلوب الذي يقوم علي المنطق والحجج، لا العبارات الإنشائية المنبعثة من الانفعال العاطفي.

تمويلها نشر كتاب «المصريون» الذي ألفه قاسم أمين

ونشر قاسم أمين كتابه بالفعل علي نفقة الأميرة نازلي (١٨٩٤)، وكان اسم كتابه «المصريون»: الرد علي الدوق داركور»، وقد تمت ترجمة الكتاب وطباعته ثلاث مرات، وفيه برهن قاسم أمين علي قدرة مصر علي القيام من رقدتها، ونفض غبار التخلف عنها. ويعتقد الأستاذ أبو القاسم كرو أن نازلي عتقت قاسم أمين علي موقفه من المرأة في كتابه وفي مقالاته فعدل عن رأيه القديم علي يديها، وهكذا فإن قاسم أمين يدين لنازلي فاضل بموقفه الجديد نحو المرأة.

قصة زواجها الثاني في تونس

ونأتي في هذا الإطار أيضا إلي علاقة نازلي بتونس وقصة زواجها الثاني في تونس.. كانت الأميرة نازلي فاضل تذهب إلي تونس لزيارة أختها الأميرة رقية، التي كانت قد تزوجت من طاهر بن عباد وهو أحد القادة التونسيين، وقد زارت نازلي تونس (١٨٩٩) ونزلت ضيفة في قصر آل البكوش، وهناك تعرفت بالشيخ سالم بو حاجب، ثم التقت الأميرة نازلي بابنه خليل بو حاجب وسرعان ما تحول التعارف إلي حب ثم إلي زواج، وقد كان زوجها الثاني أصغر منها سناً، حيث كان حين تزوجته في الرابعة والعشرين من عمره ، وكان في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس قسم التحقيق الجنائي، ثم ترقى حتي أصبح نائبا عموميا، وبعد وفاة الأميرة ١٩١٣ عين محافظا فوزيرا فرئيسا للوزراء في تونس (١٩٣١).

دورها في تونس

استقرت الأميرة نازلي فاضل بعد هذا الزواج بقصر فخم في المرسي، وسرعان ما أصبح قصرها ناديا لدعاة الإصلاح وأنصاره من شيوخ وشباب الزيتونة، ومن خريجي المعهد الصادقي. وفي تونس دعمت الأميرة نازلي فاضل كثيراً من مشاريع الإصلاح والنهضة التونسية مثل الجمعية الخلدونية الشهيرة ذات السمعة العالية ، كما دعمت عددا من الجمعيات الأخرى المشابهة ، كما كان لها دور أساسي في حث النخبة التونسية علي فتح مدارس وطنية لتعليم البنات المسلمات،

دورها في دعم جهاد الليبيين ضد الطليان

ظلت الأميرة نازلي فاضل تنتقل بين تونس ومصر حتي توفيت وهي علي ذمة زوجها الثاني خليل بو حاجب.

وكانت الأميرة نازلي فاضل في العقد الأخير من حياتها تساند جمعية الهلال الأحمر في مصر وتونس، ومن الجدير بالذكر أن جمعية الهلال الأحمر كانت قد تأسست في ذلك الوقت لمساعدة المجاهدين الليبيين في حربهم ضد غزو الإيطاليين لبلادهم (١٩١١).

وكان هذا السلوك المنتمي للأمة الإسلامية بالطبع ، مما جعل الأوربيين يعرضون عن الاعتراف بدورها السياسي العظيم ويحولون الاهتمام عنه لينشغل المؤرخون بالنقاط الخلافية الجديدة للاختلاف المؤذي لحركة المجتمعات الإسلامية و رغبتها في الحياة . ولهذا فقد كان موقف الفرنسيين منها شبيها بموقفهم من الأمير عمر طوسون أفضل أمراء الأسرة العلوية الذي تولى تقديم معونات فائقة لجهاد الليبيين .

الازدواجية المفهومة في حديث الفرنسيين عنها

كان الفرنسيون لا يملكون إلا الإعجاب بالأميرة نازلي كسيده متففة، لكنهم كانوا بطبيعتهم السياسية المتحفزة يخشونها تماما لانتمائها الإسلامي مهما كان كامنا ، ولميلها العثمانية و لعلاقتها الوثيقة بالإنجليز ، ولموقفها البارز في مساعدة المجاهدين الليبيين في حربهم المشروعة ضد غزو الإيطاليين لبلادهم ، ولتشجيعها الدائم بالمال والرأي والجاه للمشاريع الوطنية، وحماسها الإيجابي لزراعة الزعامات ودعم الروح الوطنية في مصر وتونس، لهذا كان الفرنسيون (ومن ينقلون عن نصوصهم) يعادونها بطريقة مأكرة ، ومن المؤسف أن الساسة و المؤرخين المصريين الطبيعيين الذين اعتادوا على التأثر بالكتابات الفرنسية وقعوا في شرك الاقتناع التام بوجهة نظر الفرنسيين في الأميرة نازلي ونقلوا بثقة عما كتبه الفرنسيون عنها من تقارير سرية، وقد صنفوها فيها بصفات معهودة منهم في تصنيف من يتحفظون عليهم فقد صوروا أنها كانت ضمن المتعاونين مع الألمان، كما كانوا يصورونها على أنها تتجسس للسلطان العثماني علي الخديو عباس الثاني، وأنها كانت تتجسس علي الخديو عباس لمصلحة الإنجليز، وفضلاً عن ذلك فإنهم كانوا يوظفون احترام أعضاء جماعة «تركيا الفتاة» لها في إثارة سخط بعض أركان السلطنة العثمانية عليها.

صورتها في مذكرات محمد فريد

وهكذا فإنه على الرغم من الصورة المشرفة التي تظهر بها الأميرة نازلي فاضل في كتابات الكثيرين فإن بعض المذكرات التي كتبها ساسة يميلون إلى ما يسميه المصريون بالطيبة السياسية (كمذكرات الزعيم محمد فريد) تظهرها في صورة أميرة مدللة تحتقر المصريين، وتزدرى شبابهم، وتركز هذه الكتابات على استنكار ما كان لها من علاقات سياسية وطيدة برجال الاحتلال، بل إن الزعيم محمد فريد باشا يجاهر بأنها كانت مشتغلة بالدسائس، وهو قبل غيره الذي نشر الرأي (الفرنسي المنبع والصياغة) الذي أشرنا إليه والقائل أنها كانت تتجسس للسلطان عبد الحميد الثاني على الخديو عباس حلمي الثاني ، وعلى الخديو عباس حلمي الثاني للإنجليز. وكان الزعيم محمد فريد يشير إلي أن لها حديثاً مشهوراً نشره جرفيل الأمريكي في كتاب عن مصر وصفت فيه الشبيبة المصريين أفصح وصف، وحديثاً آخر شبيها نُشر في جريدة الإيجيشيان جازيت (١٩٠٩)، وكان الزعيم محمد فريد باشا يشير كذلك إلي أنه هو نفسه كتب ضدها بإمضاء (صديق قديم) في جريدة العلم كتابات أهاجتها، فأرسلت له إحدى وصيفاتها نفيسة هانم تطلب منه الكف عن الكتابة ضدها، «وتنكر ما عزاه إليها الصحفي، فطلب منها أن تحرر له جواباً بذلك فأبّت».

الباب الثالث : الرؤساء

الفصل الرابع : محمود سامي البارودي

الفارس الذي أضاع فرصة نشأة دولة بارودية

محمود سامي البارودي باشا ١٨٣٩ - ١٩٠٤ هو الفارس العبقرى الذى أعاد الشاعرية للشعر العربى ، وهذا موضوع حديث طويل لن نعرض هنا إلا إلى قبس يسير منه ، لكنه فى حقيقة الأمر زعيم سياسى وعسكرى كبير حسن النية أضاع على مصر و العالم الإسلامى والعربى فرصة تكوين دولة بارودية مجددة .

أول مصرى يصل إلى رئاسة النظار

لولا ما تعرضت له ثورة عربى من الفشل لكان محمود سامى البارودى باشا هو أبرز شخصية وطنية فى القرن التاسع عشر بلا منازع فقد جمع ثلاثة أسباب كان يكفيه أى واحد منها لينافس على هذه المكانة، لكن اجتماع هذه الأسباب معاً جعله قادراً على أن يحوز المكانة الأولى بلا منافس، فهو أول مصرى يصل إلى رئاسة النظار فإذا قيل إنه وصل إلى هذا المنصب بسبب الثورة فإن هذا أدهى لتقدير عظمته واحترامه ، وبخاصة إذا ما قورن بغيره ممن فرضهم النفوذ الغربى ممن لا تزيد موهبتهم فى جوهرها عن متطلبات باشكاتب الحسابات الذى يعرف لغة أجنبية من قبيل نوبار باشا أو بطرس غالى الذى لم يصل إلى هذا المنصب إلا فى ١٩٠٨ (أى بعد ربع قرن من وصول البارودى إليه) ، أما البارودى فمتقف كبير وليس كاتب حسابات.

والبارودى باشا ضابط عظيم منذ بداياته العسكرية و ليس ضابطاً بالاقدمية ممن ترقوا من تحت السلاح حسب ما يقول التعبير البيروقراطى/العسكرى .

مكانته العسكرية

أعتقد أن القارئ لا يعرف بما فيه الكفاية أن وضع البارودى باشا ومكانته بين زملائه الضباط كان كمثلاً وضعه بين انداده السياسيين ، ذلك أن البارودى مضى فى تدرجه العسكرى فى سلك الضباط متفوقاً و مترقياً بثقة و تودة منذ البداية ، ولم يكن مثل كثيرين من زملائه قد ارتقى إلى درجة الضابط من بين سلك المجندين تحت السلاح . ومع أن هذا بالطبع لا يعيب هؤلاء المجتهدين لكنه يُعطينا فكرة عن التفوق الذى أحرزه البارودى منذ بداية عهده بالوظيفة العسكرية أو الحكومية.

مكانته الشعرية

قبل هذين العاملين أو السببين فإن محمود سامى البارودى باشا شاعر تاريخى مفصلى ، فهو ليس شاعراً عظيماً متفوقاً فحسب وإنما هو الشاعر الأول فى العصر الحديث، وهو باختصار معبر الذى أعاد الشعر للشعر العربى، فقد كان الشعر العربى قد فقد كثيراً من مقوماته الأسرة، والأثيرة ، والمتحمسة ، والمحمسة ، والحاكمة ، والمحكمة حتى جاء البارودى فأعاد للشعر روحه الدافقة المتدفقة، وما يرتبط بالروح من الحياة الدافقة الدافعة والنافعة .

مكانته الأدبية ومقارنته بعبد الله فكري باشا

وإذا أردنا أن ندرك الأثر المعنوي الذي أحدثه محمود سامي البارودي باشا في الشعر وبالشعر فإن بوسعنا أن نقارن بين شعره وبين شعر أديب متمكن ذي مكانة عالية في الأدب والشعر والثقافة والنفوذ وهو عبد الله فكري باشا ، وهو لحسن حظ تقنية المقارنة قريب من البارودي في السن، كما أنه أصبح وزيراً للمعارف في وزارة البارودي نفسه.

ونستطيع مع كل الإقرار بعظمة عبد الله فكري أن ندرك أن عبد الله فكري يمثل أقصى ما كان يمكن للظروف الثقافية والأدبية أن تُحققه وتستخلصه من شاعر موهوب في ذلك العصر أما البارودي فقد جاء فأضاف ما نُسميه أو ما نعرفه على أنه العبقرية التي تتخطى بإنتاج العبقرية مقومات عصره وظروفه لتضعه في مكانة متقدمة تفوق كل ما كان ممكناً في أحلام مناظره.

حفر محمود سامي البارودي باشا الشاعر لنفسه واسمه مكاناً بارزاً متقدماً متميزاً على ضفاف نهر الشعر العربي المتدفق على مدى عصوره، فإذا علمنا أننا لا نستطيع أن نجد في الأجيال السابقة مباشرة على البارودي من يُمكن اعتباره بمثابة أستاذ ملهم له وأننا لا نستطيع إلا أن نقول بأن أساتذة البارودي الحقيقيين موغلون في البعد الزمني عنه بما يقرب من فترة لا تقل عن سبعة قرون (بل ربما تمتد إلى عشرة قرون) فإننا نستطيع أن ندرك القيمة العبقرية فيما حققه محمود سامي البارودي.

قيمه الفكرية ومقارنته بالأفغاني

ها نحن انتهينا تقريباً من مقارنة البارودي بالأديب الذي وصل إلى أقصى مكانة أدبية تقليدية وهو عبد الله فكري باشا فماذا عن قيمة البارودي رجل الفكر؟

من المدهش أن محمود سامي البارودي باشا والأستاذ جمال الدين الأفغاني ولدا في نفس العام على أرجح الروايات فإن لم نأخذ بالأرجح فإن الروايات الأخرى لا تجعل الأفغاني أكبر (أو أصغر) من البارودي بأكثر من عام واحد، ولنا الآن أن نقارن بين البارودي والأفغاني من حيث كان كل منهما رجل ثورة وفكر ، و نزعة إلى تقدم أمته ، وسنجد أن البارودي تفوق على الأفغاني في دينامية حركته وفي انطلاق ثورته وفي حوض تجربته لكن الأفغاني مع هذا ورغم كل ما يقال عنه احتفظ بالتفوق في طول التجربة و ثرائها وتنوعها بل تقلبها (كذلك) وآثارها الباقية في أجيال متعددة من تلاميذه، وفي صياغات ومقاربات نظرية وفكرية لكثير من القضايا الشائكة أو المختلف فيها.

الدولة التي فرط البارودي في إنشائها

لو أن محمود سامي البارودي باشا تفهم جوهر الصراع الاجتماعي والطبقي والسياسي الذي واكبته الثورة العرابية على حقيقته لاستطاع بموهبته العسكرية وبالإمكانات المتاحة في متناول يده في ذلك الوقت ان يكون رأس دولة عربية إسلامية جديدة تُسمى بالدولة البارودية سواء حافظت على حدود مصر التي وصل إليها الخديو إسماعيل أو زادت عليها في أثناء حروب التأسيس أو

فقدت بعضها ، لكن البارودي باشا لم ينتبه إلى الفرصة التي أضعها، وظل في جهاده محصوراً وحاصراً نفسه بالنظام الذي وجد نفسه فيه، ولم يفكر إلا في أن يكون ثائراً عليه في داخله ومن داخله ، أي أن محمود سامي البارودي باشا فيما خطا من خطوات لم يفكر بجديّة في أن يكون منطلقاً من ثورته إلى أحلام شخصية أو طموحات مرتبطة بجماعة ينتمي إليها أياً ما كانت هذه الجماعة .

كان بإمكانه أن يحاور أوربا

ومع أن الغرب لم يكن ليُرحب تلقائياً (أو للوهلة الأولى) بحركة محمود سامي البارودي باشا السياسية التجديدية التي ستبث دماء جديدة في دولة عربية مسلمة شرقية جديدة فإنه أي الغرب لم يكن بقادر على أن يُعادي هذه الدولة إذا ما ثبتت أقدامها ، فقد واكبت عصر البارودي مرحلة لم تكن أوربا فيها (لظروف كثيرة) قادرة على الكيد السريع المنظم .

الموقف المتوقع من العثمانيين

وشبيه بهذا ما كان متوقعا من علاقة مصر الثائرة بالخلافة العثمانية ذلك ان اسطنبول لم تكن مرتاحة تماما (بالطبع) من الأداء المتواطئ الذي كان الخديو توفيق يقود به مصر غير محافظ بما فيه الكفاية على الزخم الذي حققه له والده الخديو إسماعيل.

ومن الجدير بالذكر هنا أن محمود سامي البارودي باشا كان أصغر في السن من الخديو إسماعيل وإن كان أكبر بقليل من السلطان عبد الحميد وأكبر بكثير من الخديو توفيق (١٨٥٢ - ١٨٩٢). ومن الجدير بالذكر هنا أيضا أن السلطان عبد الحميد الثاني كان قد تولى الخلافة في ١٨٧٦ أي قبل عزل الخديو إسماعيل بثلاث سنوات ، (وهكذا فإن حكام مصر الذين عاصروا السلطان عبد الحميد هم الخديو إسماعيل من ١٨٧٦ وحتى ١٨٧٩ والخديو توفيق من ١٨٧٩ وحتى ١٨٩٢ والخديو عباس حلمي من ١٨٩٢ وحتى عزل السلطان عبد الحميد نفسه في ١٩٠٩) ، أي أن الأب إسماعيل والابن توفيق والحفيد عباس عاصروا السلطان عبد الحميد (١٨٤٢ - ١٩١٨) الذي كان أصغر في السن من الخديو إسماعيل (١٨٣٠ - ١٨٩٥).

وعيه الاستراتيجي أقل من وعيه الفكري

هل كان محمود سامي البارودي باشا في إنجازهِ السياسي والمهني (العسكري) أقل من مستواه الثقافي والفكري ؟

بكل تأكيد فإنه يبدو كذلك وان لم يكن هذا حقيقيا تماما ، والسبب في هذه المفارقة بسيط جداً، وهو أن البارودي في وعيه الاستراتيجي والسلطوي لم يكن موازيا للبارودي في وعيه الفكري العبقري ، فلم يُدرك مبكراً ولا في الوقت المناسب أن فشل الثورة التي يشارك فيها والتي سيرأس وزارتها سيترتب عليه اهتزاز استقلال الوطن بل خضوعه التام لمصلحة محتل متربص، وسيترتب عليه ضياع آمال إقليمية في نهضة عربية إسلامية تراكب النهضات التي بدأت بذورها تنتعش في العالم القديم موحية بأن ثمارها أيضا قادرة على أن تشتعل ويلمع اشتعالها على نحو لا

يقبل الإخفاء ولا الإنكار، و لم يُدرك مبكراً ولا في الوقت المناسب أن فشل الثورة العرابية سيترتب عليه على المستوى الشخصي ضياع أماله واحلامه وامجاهه على نحو ما حدث .
صحيح أن محمود سامي البارودي باشا وقادة الثورة العرابية قد عاصروا عهد الملكة فكتوريا بما مثله من الاستقرار طويل الأجل في بريطانيا إذ حكمت تلك الملكة ما بين ١٨٤٨ و ١٩٠٠ لكن هذا العصر الفيكتوري نفسه كان ينبئ عن انه سوف يشهد تطورات كثيرة في المستوى الداخلي وفي مستوى ما عرف باسم المستعمرات البريطانية.

المتغيرات التي أهمل البارودي تقدير خطورتها

و صحيح أن محمود سامي البارودي باشا كان قد شهد استقراراً في مصر على الرغم مما فرض عليها من مشكلات مالية أو تمويلية لكن المدافع عن تحفظ البارودي أو انكماشه لا يستطيع أن ينكر أنه شهد أثر الاجتياح الفرنسي الظالم للجزائر وتونس ومحاولات اجتياح أخرى كما أن أصداء ما كان يحدث في الهند وفي غير الهند كانت تصل إليه بالقطع، كما أن خطوات التأسيس في عصور ما بعد الحرب الاهلية المستهدفة لتطوير الدولة الأمريكية الجديدة عبر البحار كانت تصله على نحو ما كانت تصله أنباء الهجرة إلى الأمريكيتين.

وبكل تأكيد فإن البارودي كان ملماً إلى حد كبير بالأوضاع الخاصة التي استطاع شيوخ قبائل عربية في جزيرة العرب أن يحصلوا بها على علاقات خاصة مع الإمبراطورية البريطانية في مقابل تأمينهم لممارسة هوايات بريطانية أو نزوات بريطانية من قبيل الحصول على اللؤلؤ للترزين به أو للتجارة فيه بعد تشكيله تشكياً بسيطاً مما كان ذلك العصر يستطيعه.

البارودي تجاهل الطموح الفطري

أهمل البارودي استيعاب هذا كله و استكناحه ، أو فلنقل أن البارودي تجاهل ما كان واجبا عليه من فهم هذا كله وحصر نفسه كما فعل زميله عرابي باشا (١٨٤١-١٩١١) في قضايا مغرقة وغارقة في المحلية من قبيل إقرار الدستور (مع أهمية إقرار الدستور) والحصول على حقوق الضباط المصريين في الترقيات (بالموازاة لظلم الشراكسة الذين كانوا يصنعون عصبية لا تناظر بالنسبة للكيان الأكبر أكثر من صورة قضية مغرقة وغارقة في المحلية من قبيل عصبية أبناء المنوفية في عصرنا على سبيل المثال).

وهكذا ضاعت من مصر ومن البارودي فرصة نشأة الدولة البارودية ، وبدلاً من هذا فقد حوكم رئيس الوزراء صاحب الدولة محمود سامي البارودي باشا ، ونفي، وأوذي، وعانى الغربة، والسجن ، والمرض وفقدان البصر حتى عاد إلى مصر قبيل وفاته بعد أكثر من عشرين عاماً عاشها مظلوماً مطارداً مغضوباً عليه في جزيرة سيلان التي تعرف الآن باسم سريلانكا.

الفصل الخامس محمد شريف باشا أبو الدستور

محمد شريف باشا ١٨٢٦-١٨٨٧ هو ثاني أفضل رؤساء وزراء مصر فيما قبل ١٩١٩ بعد محمود سامي البارودي باشا ١٨٣٩-١٩٠٤ الذي يسبقه بالطبع لا بإنجازاته ولا بسياساته وإنما بفضل مكانته الوطنية و الثورية والفكرية والأدبية مع أنه لم يعمر في منصبه كرئيس للوزراء كثيرا ، فإذا كان الأمر بالإنجازات والسياسة والحكمة فإن شريف باشا يسبق البارودي باشا بمراحل لكننا كعرب لا نستطيع أن نقدم أحدا على الشاعر الفحل الذي أحيا الشعر العربي وبعثه من مرقدته كما أننا كأندلسيين لا نستطيع أن نقدم أحدا على رئيس وزراء الثورة .
ويلي شريف باشا في هذه المكانة المتقدمة بين رؤساء الوزارة و السياسة رجل الدولة العتيق مصطفى رياض باشا ١٨٣٤-١٩١١، وقد كان هذان الرجلان مع اختلاف صورتيهما في كتب التاريخ مخلصين لمصر وللمصريين حتى مع احتكاكهما بالثوريين المتحمسين والوطنيين المدعين الذين لا يسلم منهم الوطنيون المخلصون، ومع أن الاستبداد ينسب الى رياض باشا فإننا نجد على سبيل المثال إشارات منقولة عن بعضها البعض تتضمن النبذة القائلة بأن شريف باشا كان يحتقر المصريين، و قد شاعت هذه النبذة في كتابات المصريين الذين يستسلمون للنقل عن الأجانب الذين يقتنصون الأخطاء التعبيرية العابرة وغير المقصودة ، و يوظفونها للوقبة والعنصرية بين المسلمين الذين كانوا ينصهرون معا تحت مظلة الدولة العثمانية .

رمزيته

ومن الجدير بالذكر ان شريف باشا في نشأته كان يصور تواصل مجتمعات العروبة و الإسلام في صورها المتعددة بين مصر و الحجاز وبين العرب والأتراك والشركس و غيرهم ، وبالطبع فإنه لم يكن يحتقر إلا من يجلب الاحتقار لنفسه وخاصة إذا ما كان من يحكم عليه بالاحتقار من طبقة شريف باشا الرفيعة فهو ابن عالم دين تركي رفيع الشأن والمقام وقد وصل الى اعلى درجات القضاء ، كما أنه تزوج من ابنة قائد الجيش الكولونيل سليمان باشا الفرنسي ، كما أنه تربى مع أولاد محمد علي وسافر معهم في بعثتهم إلى فرنسا كما أنه درس في مدرستين عسكريتين فرنسيتين كأنهما الكلية الحربية والفنية العسكرية (سان سير و مدرسة التطبيقات العسكرية) بل إنه عمل في الجيش الفرنسي في رتبة متقدمة لشاب مثله.

لقبه واسمه

لا نفوت إشارة لا ينبغي تأخيرها وهي أن هذا الجيل من السياسة المصريين يضم اثنين لقبيا في أدبيات التاريخ بلقبى الابوة : على مبارك أبو التعليم ، و شريف أبو الدستور .

ولا نفوت إشارة أخرى وهي أنه من الطريف أن شريف باشا كان يحمل اسم والده : محمد شريف وكذلك كان ابن شريف باشا يحمل اسم والده وهكذا فاننا امام الاب والابن والحفيد يحملون اسما واحدا فالأب قاضي القضاة ،والابن رئيس الوزراء ، والحفيد الأول وكيل وزارة الخارجية .

نشأته

صادف حظ محمد شريف باشا أنه ولد في القاهرة فقد كان والده محمد شريف افندي حين ولد قاضيا للقضاة في مصر وكان منصبه القضائي يقتضي التنقل، فلما كان في القاهرة رزق بابنه شريف باشا في ٢٦ نوفمبر ١٨٢٦ (نذكر القارئ بأن رياض باشا ولد في ١٨٣٤ أما نوبار باشا فولد في ٤ يناير ١٨٢٥ بما يعني انه أكبر من شريف باشا بما يقرب من عامين. و أما علي باشا مبارك الوزير الرابع الموازي لهؤلاء الرؤساء الثلاثة والذي هو أعظم منهم قدراً فقد ولد في ١٨٢٣ أي قبل نوبار بعامين، وهكذا تمضي المتواليّة: علي باشا مبارك ١٨٢٣، نوبار باشا بداية ١٨٢٥ ، شريف باشا نهاية ١٨٢٦ ، رياض باشا ١٨٣٤ .

زار والد محمد شريف باشا الوالي محمد علي باشا وهو في إحدى رحلاته الوظيفية (حيث كان متوجها الى الحجاز ليتولى القضاء فيها) وكان ابنه بصحبته فأعجب الوالي محمد علي باشا بذكائه ، و اقترح على والده أن يتركه في معيته ليضمه لأولاده في مدرستهم وتربيتهم وهكذا تربي شريف باشا مع أولاد محمد على وابتعث معهم الى باريس حيث درس العلوم العسكرية و انتظم في خدمة الجيش الفرنسي من باب التدريب كما هي العادة في خريجي المدارس العسكرية الفرنسية في ذلك الوقت ، و من المفهوم بالطبع أنه زامل بعض من وصلوا إلى مواقع فرنسية متقدمة في ذلك العصر الذي كان يتسم بالاضطراب المتحكم فيه أما من مصر فقد كان أهم زملائه الخديو إسماعيل الذي يصغره بثلاث سنوات وشهر ، وعلى باشا مبارك الذي كان يكبره بثلاث سنوات .

مناصبه العليا

فيما قبل وصوله للمناصب الوزارية العليا سار تدرج محمد شريف باشا في الوظائف العسكرية والمدنية على النحو التالي:

في مدرسة سان سير العسكرية	١٨٤٤ - ١٨٤٦	-
نقيا لكتيبة فرنسية	١٨٤٦	-
نقيا في الجيش المصري	١٨٤٩	-
كاتبا للأمير محمد عبد الحلیم زميله	١٨٥٣	-
في باريس وابن محمد علي باشا الكبير		
أميرالاي في عهد الوالي محمد سعيد وقائد كتيبة مشاة.	١٨٥٤	-

مناصبه الوزارية

بدأ شريف باشا تولي المناصب الوزارية قبل تأسيس النظام الوزاري المصري في ١٨٧٨ شأنه شأن رياض باشا ونوبار باشا وعلي باشا مبارك بل إن كلاً منهم قد تقلد كثيراً من الوزارات تقريباً وبدون ترتيب متصور وعلى سبيل المثال فإن شريف باشا تولى الوزارات التالية:

الخارجية (في عهد محمد سعيد)	١٨٥٧	-
رأس مجلس الأحكام	١٨٦١ - ١٨٦٣	-
الداخلية والخارجية (في أول عهد إسماعيل)	١٨٦٣	-
تولى إدارة شؤون المعارف لفترة قصيرة	١٨٦٣	-
الداخلية وأضاف إليها الأشغال العمومية	١٨٦٦	-
عاد لرئاسة مجلس الأحكام	١٨٦٧	-

وصوله للمكانة الأولى بين رجال الدولة

وصل شريف باشا إلى المنصب الذي يوازي رئيس الوزراء منذ ١٨٦٨ أي قبل نشأة النظام الوزاري المصري بعشر سنوات :

رئيساً للمجلس الخصوصي (الذي يناظر مجلس الوزراء)	١٨٦٨	-
الحقانية	١٨٧٢ - ١٨٧٥	-
التجارة	١٨٧٤	-
التجارة	١٨٧٦	-
وزيراً للحقانية والخارجية	١٨٧٨	-
شكل وزارته الأولى التي هي ثالث الوزارات المصرية وأخر وزارات عهد إسماعيل	١٨٧٩	-
شكل وزارته الثانية التي هي رابع الوزارات وأولى وزارات عهد توفيق.	١٨٧٩	-
رئيساً للوزارة للمرة الثالثة	١٨٨١ - ١٨٨٢	-
رئيساً للوزارة للمرة الرابعة والأخيرة	١٨٨٢ - ١٨٨٤	-

المقومات الفريدة لأهميته السياسية

على وجه العموم عُرف محمد شريف باشا بنزاهته وإخلاصه لمصالح وطنه مصر وبمقاومته إلى حد كبير للنفوذ الأجنبي والاستعمار البريطاني، وعلى وجه الخصوص وقبل أن نتناول تاريخه في المراحل المتعاقبة فإنه يمكننا القول بأن أهمية شريف باشا بل سمعته الجيدة تكمن في ثلاثة مواقف سياسية مفصلية لم تتح لمثله على هذا النحو المشرف له :

أولها: فهو أول من أعد مشروع أو مسودة القانون الخاص بإقامة مجلس نيابي في ١٨٦٦ وهو المجلس الذي عرف باسم مجلس شورى القوانين.

ثانيها: هو أنه السياسي الوطني البارز الذي أيد الحركة الدستورية التي بدأ الحزب العسكري أو بعض قيادات الضباط (بزعامه أحمد عرابي) في المطالبة بها قبل ما عُرف وتبلور على أنه ثورة عرابي، ولهذا فإن التاريخ المصري الحديث المكتوب بطريقة مدرسية يختصر أحد مطالب ثورة عرابي (على مستوى طلاب المدارس الابتدائية وما يليها) في القول بإقالة وزارة رياض باشا وتعيين شريف باشا (أبو الدستور) رئيساً للوزراء. ومع هذا فإن التاريخ المكتوب يقصر في الإشارة إلى ان تعيين شريف باشا رئيساً للوزراء لم يتكفل بتلبية مطالب الثورة العرابية بل باشتعال اوارها حتى أسندت رئاسة الوزارة نفسها إلى البارودي باشا.

ثالثها: هو الموقف الأعلى الذي يُخلد فيه في التاريخ وهو استقالته المشرفة من وزارته الرابعة في ١٨٨٤ احتجاجاً على تدخل بريطانيا في السودان وحرصاً منه على تأكيد وحدة وادي النيل، ولهذا فإنه لم يتردد في الاستقالة والثبات عليها. ولهذا كله فقد كان شريف باشا دائماً محط آمال التطلعات والتوجهات الوطنية المصرية كرئيس وزراء وطني معروف بوطنيته التي تعلو فوق الشبهات.

صفاته المثلى وأخلاقه الرفيعة

تحفل مصادر كتب التاريخ و التراجم وكتب أستاذنا الراجعي بكثير من الثناء على شخصية شريف باشا ، ومنها على سبيل المثال هذه الفقرة الرائعة :

" كان شريف باشا جميل الطلعة ، طويل القامة ، مشرق الوجه ، معتدل القوام ، متواضعاً في أنفه وشمم ، عظيمياً في غير صلف ولا غرور ، دمث الأخلاق ، كريم الطباع ، شريفاً نزيهاً ، صادق الوطنية ، غيوراً على حقوق مصر ، محباً للحرية ، تتمثل فيه أخلاق كرام النبلاء وطبايعهم وأساليهم ، شديد الاحتفاظ بكرمه وعزة نفسه ، يتنزه عن الصغائر ، مستقل الرأي ، لا يرضى لنفسه أن يكون أداة في يد غيره ، كانت هذه الصفات رداء له في حياته السياسية ، إذ صانته من أن يتدلى إلي تنفيذ أهواء الخديويين والمستعمرين ، فسلك إزائهم مسلك الكرامة والأنفة ، ومن هنا جاءت موافقة المشرفة في الدفاع عن حقوق مصر وكرامتها وكان فوق ذلك كامل الثقافة واسع الاطلاع ، ملماً بعلوم أوروبا وأحوالها ، فكان ينال احترام ساسة الأوربيين ممن عاصروهم أو اتصل بهم ، ولم يكن ينقصه من صفات رجال الدولة سوى الجلد على العمل ، فإنه كان يميل إلي الدعة والراحة ، ويدع تصريف كثير من شؤون وزارته إلي مرؤوسيه.

قدرته على استيعاب معاصريه

كان شريف باشا في عصره رجل الدولة الوحيد الذي ارتضى معاصروه جميعاً واحداً بعد آخر العمل تحت رئاسته ، وعلى الرغم مما كان من التنافس بينه وبين نوبار باشا من جهة ، ورياض باشا من جهة أخرى ، فإنهما قبلاً أن يعملتا تحت رئاسته، فقد كان رئيساً للمجلس الخصوصي العالي (مجلس الوزراء) سنة ١٨٦٩ حين كان نوبار يتولى وزارة الخارجية.

ولما كان رئيساً لوزارته الأولى سنة ١٨٧٩ كان من أعضائها إسماعيل راغب باشا وشاهين باشا وذو الفقار باشا. ولما أُلّف وزارته الثانية كان من أعضائها محمود باشا سامي البارودي ومصطفى فهمي باشا. ولما أُلّف وزارته الثالثة سنة ١٨٨١ كان من أعضائها البارودي ومصطفى فهمي وقصري باشا ، ولما أُلّف وزارته الرابعة كان من أعضائها رياض باشا و على باشا مبارك.

إنجازاته التنفيذية

فيما قبل نشأة النظام الوزاري الحديث كان شريف باشا كما ذكرنا يتولى ديوان المعارف ، و في ذلك العهد أدخل الكتاتيب في الهيكل التعليمي للوزارة، وجعل معرفة القراءة والكتابة شرطاً أساسياً لتعيين أعضاء مجلس شورى النواب ، وشكل "مجلس المعارف" لإعداد المشورة في أمور التعليم ووضع له لائحة خاصة. وهو الذي أنشئت في عهده مدرسة المهندسخانة (الهندسة) ١٨٦٦، والمدرسة التجهيزية بالقاهرة (المدرسة الخديوية) عام ١٨٦٨، ومدرسة الحقوق في ١٨٦٨ وفي عهد وزارته الثالثة عام ١٨٨١ صدرت القوانين العسكرية التي تهدف إلى تحسين حال الضباط والجنود وكفالة حقوقهم في الترقيات والمرتبات والمعاش، كما نظم التعليم في المدارس الحربية.

وفي عهد وزارته الرابعة عام ١٨٨٣ تم افتتاح المحاكم الأهلية. و بالإضافة لهذا كله فإنه كرجل سياسي يعتبر المؤسس الحقيقي لمجلس النواب المصري والنظام الدستوري النيابي الحديث.

دوره في بداية عهد الخديو توفيق

كان شريف باشا قد أصبح رئيساً للوزراء في نهاية عهد الخديو إسماعيل ، و في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ خلع الخديو إسماعيل، وتولى حكم مصر بعده ابنه الخديو محمد توفيق باشا . وسرعان ما نفذ الخديو الجديد نصيحة القنصل البريطاني بإبعاد أخويه الأميرين حسن وحسين المعروفين بحماسهما لوادهما وقرر نفيهما على الفور، وكان هذا أول قرار يتخذه الخديو الجديد. بدأ عهد توفيق باستقالة شريف باشا من رئاسة النظارة اتباعاً للمألوف عند تغيير رأس الدولة، وعهد إليه الخديو توفيق بتأليف الوزارة على المبادئ المعهودة ، وجاء في خطاب تكليفه له : " ولعلمي أن الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية ونظارها مسئولين فأني اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلماً لا أتحوّل عنه، فعلياً تأييد مجلس شورى النواب وتوسيع قوانينه لكي يكون له الاقتدار في تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الأمور المتعلقة بها" .

مطالبته بإصدار الدستور وقانون الانتخاب

كانت القوى الوطنية ومنها شريف باشا نفسه تظن أن الخديو الجديد سوف يحقق لها و للوطن ما بدأ من بوادر التوجه نحو الديمقراطية في أخريات أيام والده ، كانت الحركة الوطنية مستبشرة بهذا الخديو الشاب الذي كان وثيق الصلة بكل أقطاب هذه الحركة، كما كان معروفاً بأنه شديد الولاء لأستاذه جمال الدين الأفغاني، حتى أنه في عهد والده استقال من رئاسة الوزارة ليتولى

شريف باشا مكانه استجابة لمطالب الدوائر الوطنية، لكن هذه القوى لم تكن تدرك أن النفوذ البريطاني سيجبر الخديو الجديد على المضي بسرعة في مسار مناقض ومعاد للحركة الوطنية . كان مشروع الدستور ومشروع قانون الانتخاب اللذان أنجزتهما وزارة شريف باشا قد تمت مناقشتها في مجلس شورى النواب، وصادق المجلس عليهما مع بعض التعديلات، ثم توقفت الأمور عند هذا الحد مع بدء وقائع خلع الخديو إسماعيل. فلما تم تكليف شريف باشا برئاسة الوزارة بادر برفع المشروعين إلى الديوان مع هذه الديباجة :

“لما كانت الشورى هي الأساس الأول لكل حكومة متمدينة لما يترتب عليها من المزايا الجمّة للبلاد، و [لما] كان مجلس النواب الذي تأسس بهذه الغاية منذ عدة سنوات مضت لم تحصل منه الفائدة المطلوبة لعدم حصوله على كل الامتيازات المتحصلة عليها النواب في البلاد الأخرى، ولعدم وجود قاعدة للانتخاب بطريقة مستقلة، وبما أن مسئولية النظر تستوجب وجود هيئة حرة تكون تلك المسئولية لديها بالمعنى الحقيقي، لهذا اشتعل مجلس النظر بهذه المسألة المهمة ووضع لائحة أساسية تشتمل على حقوق النواب وواجباتهم ولائحة أخرى للانتخاب وأرسلها لمجلس النواب مدة انعقاده وتصدق عليهما بعد أن أجرى عليهما بعض التعديلات، وحيث إنه بالاطلاع على هاتين اللائحتين وجدنا مطابقتين لأفكار الحضرة العلية الخديوية التي جل أمانيتها هي تأييد الشورى وإعلاء مقدارها حسبما اقتضته الإرادة السنية، فاقترضت تحرير هذا لسعادتكم ومعه اللائحة الأساسية ولائحة الانتخاب اللتين استقر عليهما الرأي أخيراً بأمل عرضهما على الأعتاب، ومتى وافق يصدر الأمر بذلك بالتصديق عليهما لأجل طبعهما ونشرهما وإجراء العمل على مقتضاها”.

رئيس مجلس النظر

محمد شريف

الإحياء بفض البرلمان

كان مجلس شورى النواب قد اجتمع بجلسة ١٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ الموافق ٦ يوليو سنة ١٨٧٩ وتليت إفادة من وزارة الداخلية، مضمونها أن النظر في اللائحتين (الدستور وقانون الانتخاب) يقتضي زمناً طويلاً، ولذلك ترى الترخيص لحضرات الأعضاء بالتوجه إلى بلادهم، وبعد تاريخه ينظر فيما يلزم.

كان هذا يعني إجراء شبيهاً بالفض ، وكانت تلك آخر جلسة تعقد في الدور الثالث من الهيئة النيابية الثالثة.

خلافه مع الخديو توفيق واستقالته

لم يتوافق الخديو توفيق مع نزعة شريف باشا الدستورية، إذ كان الانجليز من خلال قنصلهم القوي قد تمكنوا من التحكم في توجهات الخديو ، وهكذا ظهر الخلاف مكرراً على نظام الحكم، وتأخر رد السراي على مذكرة شريف باشا، وحينما استعجل الأمر لم يتلق جواباً، وحين عاود الاستعجال جاءه الرد بأن الخديو يرى تأجيل التصديق على اللائحتين، وأدرك شريف باشا أن

القنصل البريطاني الذي كان دائم التردد على الخديو قد نصحه أو أمره برفض التصديق على الوثائق الديمقراطية وأنه امتثل للأمر. ولهذا فقد قدم شريف باشا استقالة وزارته في أغسطس سنة ١٨٧٩، بموافقة زملائه من الوزراء الذين تعاهدوا مع رئيسهم على أنه إذا لم يجب طلبهم إلا يقبل أعضاؤها الاشتراك في وزارة أخرى تتألف على غير هذا الأساس.

تشكيل وزارة الخديو توفيق الثانية

سيطرت حالة من الإحباط على الرأي العام باستقالة شريف باشا في ذلك الوقت المبكر من حكم الخديو توفيق، وبخاصة حين عرف الرأي العام أن الخديو توفيق سيتولى بنفسه رئاسة النظارة، وهو ما يعني تعيين وزراء لا تتألف منهم هيئة مستقلة بل يكونون كأنهم بمثابة سكرتيرين خصوصيين له، ولم يتحدث أحد في ذلك الوقت عما عرف على أنه النظام الرئاسي الأمريكي فقد كانت المرجعية السياسية في ذلك الوقت أوربية بنسبة ١٠٠٪. ومن العجيب أن وزراء شريف باشا قد أوفوا بعهدهم في عدم الاشتراك في وزارة جديدة ما عدا اثنين كانا من الضباط و هما محمود سامي باشا البارودي ومصطفى فهمي باشا، فقد قبلوا بالاشتراك في الوزارة التي تولى الخديو رئاستها، ثم في وزارة رياض باشا.

ظهور استبداد الخديو توفيق

أصيب الرأي العام بالدهشة حين صدر في اليوم التالي ليوم فض البرلمان قرار بطرد جمال الدين الأفغاني من مصر على أن يتم ذلك خلال أربع وعشرين ساعة، وشتت الصحف الحكومية حملة ضارية على «الأفغاني الأفاق» وسمته "ضلال الدين".

وزارة رياض باشا

لم تستمر وزارة الخديو توفيق باشا طويلاً، ففي سبتمبر سنة ١٨٧٩ استدعى الخديو رياض باشا من أوروبا لكي يتولى رئاسة "مجلس النظارة"، وبدأت هذه الوزارة تنفيذ الحلول الإنكماشية القاسية من أجل انقاذ الحالة المالية للبلاد وهي نفسها الحلول التي يصنفها المؤرخون الذين ينقلون عن الفرنسيين على أنها مظاهر استبدادية أوحى بها الانجليز. و بقيت مصر في عهد وزارة رياض محرومة من الحياة النيابية مدة سنتين متواليين، لم يجتمع خلالها مجلس جديد يمثل الأمة، ولا مجلس شورى النواب القديم الذي كان موجوداً من قبل، إلى أن قامت الثورة العرابية.

مواجهة عرابي للخديو

تحرك عرابي باشا على رأس الجند، وساروا إلى ميدان عابدين يوم الجمعة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وكان أشهر مطلب لعرابي في ذلك اليوم المشهود هو عزل وزارة رياض باشا، وتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش، فاستقال رياض نزولاً على إرادة العرابيين، ونادى زعماء الثورة بتكليف محمد شريف باشا بتأليف الوزارة فاستجاب لهم الخديو توفيق.

تكليفه بتشكيل الوزارة وتمنعه

كانت أولى النتائج التي تترتبت على الثورة العراقية في ٩ سبتمبر ١٨٨١ أن استدعى الخديو توفيق شريف باشا، وكان وقتئذ بالإسكندرية، وعهد إليه بتأليف الوزارة فتردد أياماً في قبول المهمة، إذ كان لا يقبل بتدخل الجيش في السياسة، وما يفضي إليه من سقوط هيئة الحكومة وقيام الفوضى في البلاد. كان شريف كما هو معروف ومعلن يرفض تدخل العسكر في شؤون الحكم، ويعتبره عدواناً على الدستور، ففضى بضعة أيام متردداً في قبول الرئاسة، حتى قدم له زعماء العسكر (أو العراقيون كما يسمون في حركة التاريخ) الموائيق والضمانات والوعود ألا يتدخل الجيش في شؤون الحكومة.

نصيحة شريف باشا للعسكريين بالبعد عن العسكرة

ذهب زعماء الثورة من الضباط وعلى رأسهم عرابي ليشكروا شريف باشا على قبوله الوزارة في تلك الأوقات العصيبة. وكان شريف باشا حريصاً في هذا اللقاء على أن ينبه القادة العسكريين إلى ما كان يؤمن به من ضرورة وجوب ابتعاد الجيش عن التدخل في السياسة، فأجاب على كلمة الشكر التي سمعها منهم بقوله: «في علمكم ما قاله الأقدمون: أفة الرئاسة ضعف السياسة، ولا حكومة إلا بقوة، ولا قوة إلا بانقياد الجنود انقياداً تاماً، وامتثالهم امتثالاً مطلقاً».

وكان مما قاله شريف باشا في مناقشة عامة من تلك المناقشات مما يعتبر من أفضل النصوص المناهضة لتدخل العسكر في السياسة :

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات، من أهمها صيانة الوطن، وحفظ الأمن العمومي فيه، وهذا وذلك لا يتأتيان إلا بإطاعة رجالها العسكريين، فترددي أولاً في قبول الرئاسة، ما كان إلا تجافياً عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال، ويزيد معها الإشكال، فأكون عرضة للملامة بين أخواني في الوطن وبين الأجانب، وحيث أغاثتنا الألفاظ الإلهية، وحصل عندي اليقين بانقيادكم، فقد زال الاضطراب من القلوب، ورتبت الهيئة الجديدة من رجال ذوي عفة واستقامة، فأوصيكم بملاحظة الدقة في الضبط والربط، لأنهما من أخص شؤون العسكرية وأساس قواها، واعرفوا أنكم مقلدون أشرف وظيفة وطنية، فقوموا بأداء واجباتها الشريفة، وعلي القيام بأداء كل ما يزيدكم فخراً وسؤدداً، وفقنا الله وإياكم».

تأليف وزارته الثالثة

ألف شريف باشا الوزارة في ١٤ سبتمبر ١٨٨١، أي بعد وقفة عرابي الشهيرة بخمسة أيام، وكانت هذه ثالث وزارة يؤلفها، واحتفظ بالداخلية مع رئاسة الوزارة. وعهد بوزارة الحربية إلى محمود سامي باشا البارودي، لأنه كان موضع ثقة العراقيين (وهو الذي سيخلفه في رئاسة الوزارة بعد شهور قليلة في فبراير ١٨٨٢ وضمت هذه الوزارة كلا من :

- حيدر باشا للمالية
- إسماعيل أيوب باشا للأشغال

- مصطفى فهمي باشا للخارجية
- محمد زكي باشا للمعارف والأوقاف
- محمد قدرى باشا للحقانية.

الإنتاج الديمقراطي في وزارته الثالثة

في وزارته الثالثة التي تولت في ١٤ سبتمبر ١٨٨١، دعا شريف باشا إلى إجراء انتخابات عامة ، طبقاً للائحة مجلس شورى النواب القديم المؤسس في عهد إسماعيل على أن تعرض الوزارة على المجلس المنتخب التعديلات التي ترى إدخالها على نظام المجلس ليقرر ما يراه من التعديل في نظامه حتى ينهض إلى مستوى المجالس النيابية الصحيحة ، أي أنه دعا إلى انتخاب مجلس شورى النواب على أن يكون بمثابة جمعية تأسيسية لوضع الدستور الجديد.

إجراء الانتخابات و انعقاد البرلمان

تمت الانتخاب ، وافتتح الخديو هيئة برلمانية جديدة لمجلس شورى النواب في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ وبدأ ذلك المجلس يتولى أعماله ، وفي ٢ يناير ١٨٨٢ عرض عليه شريف باشا مشروع القانون الأساسي للمجلس النيابي ، كي يبحثه المجلس ، ويقرر ما يراه فيه ، وكان المشروع يتضمن الإقرار بمسئولية الوزارة أمام مجلس النواب وتخويله حق تقرير الميزانية ، والرقابة على أعمال الحكومة والزامها بعدم فرض اي ضريبة أو إصدار أي قانون أو لائحة إلا بعد تصديق مجلس النواب.

كلمته في عرض مشروع الدستور

حين عرض شريف باشا مشروع القانون الأساسي على البرلمان ألقى كلمة ذكر فيها باعتزاز حقيقي أنه بوضع هذا المشروع ينفذ الخطة التي كان قد رآها وعمل من أجلها منذ ثلاث سنوات في عهد الخديو إسماعيل:

" تعلمون حضراتكم أنه منذ ثلاث سنوات تراءى لي أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطانات التي كانت محيطة بها هي توسيع نطاق الشورى ، واشتراك رأي نواب الأهالي مع الحكومة في نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة ، وكنت قدمت مشروعاً لمجلس النواب ، الذي كان موجوداً وقتئذ ، وهو أجرى فيه تغييرات لم يتيسر للحكومة النظر فيها ، ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم (يقصد خلع إسماعيل ومشكلة الديون) ترتب عليها تعويق إتمام المشروع ، والحمد لله قد زالت العوائق "

آماله في تقدير النواب للمسنولية

ثم أشار شريف باشا في كلمته إلى جوهر رأيه في القانون الأساسي القديم لمجلس شورى النواب ، وأنه لا يلائم حالة البلاد ، وأن هذا ما دعاه إلى وضع المشروع الجديد (وهو مقتبس من مشروع دستور سنة ١٨٧٩) ، والمح شريف باشا للنواب إلى دقة موقفه وموقفهم ذلك أنه كان هناك رأي بعدم إطلاق سلطة المجلس طفرة واحدة ، ولكن ثقته بكفاءة النواب جعلته يميل إلى

تحويل المجلس سلطته التامة ، مع احترام تعهدات الحكومة المالية المترتبة على اتفاقاتها مع الدول ، أو على قانون التصفية ، مؤملاً أن تتخلص البلاد مع الزمن من قيود هذه الاتفاقات:

" ولما كانت لائحة النواب التي اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعاً ، كما أوضحت ذلك منذ ثلاث سنوات ، وكررت بالمعروض الذي رفعته أخيراً للسدة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا ، فقد اشتغلت مع رفقائي بتحضير لائحة موفقة لمقاصد العموم ، وقد تمت ، وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ، مع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر ، وكان يلزم أن السلطة التي تعطى له لا تكون مطلقه بالكلية حتى يحكم المستقبل بإطلاقها بالترديج شيئاً فشيئاً ، لكن حيث أن مقصدنا جميعاً واحد ، وهو خير البلاد ، والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن ، فقد أعطت لكم الحرية التامة في إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأموري الحكومة من أي درجة أو أي صنف كانوا ، وتصرح لكم بنظر الموازين (الميزانيات) العمومية ، وابداء رأيكم فيها ، ونظر كافة القوانين واللوائح ، وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أي ضريبة ، ولا نشر أي قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق وإقرار منكم ، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم [أي أمامكم] عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقكم ، والغاية فإن لم يحجر عليكم في شيء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم".

كيف نشأ الخلاف بين شريف باشا و الحركة العربية

بعد أن عرض شريف باشا مشروعه الدستوري (القانون الأساسي) في يناير ١٨٨٢ تمكنت دسائس الدولتين الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا من خلق أزمة سياسية من النوع المعهود في إحداث التفريق بين جناحين وطنيين وذلك من خلال استفزاز الوطنيين بفعل ما (أي فعل) يجلب اختلاف الرأي فيما يجب اتخاذه كرد فعل له ، وهي طريقة لا تزال تثبت جدواها حتى اليوم ، وتضمن للدول التي تتحرش باستقلال الوطن الفرصة لإظهار المتحمسين كمتطرفين ، وإظهار المحنكين كمتخاذلين أو عملاء ، وتبدأ الدائرة المفرغة الكريهة التي تضمن للدول الاستعمارية تحقيق أطماعها في الوطن (وينطبق هذا على أي وطن في أي زمن).

استفزاز بريطانيا وفرنسا للوطنيين

في يناير ١٨٨٢ قدم المندوبان السياسيان للدولتين الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا إلي الخديو توفيق مذكرة من دولتيهما تتضمن اتفاقهما على تأييد سلطة الخديو عند حدوث أي صعوبات من شأنها عرقلة مجرى الاعمال العامة في مصر ، وأن الحوادث الأخيرة بالديار المصرية وأخصها صدور المرسوم الخديوي بعقد مجلس النواب قد هيأت الفرصة للحكومتين لاتفاقهما على منع ما عساه أن تستهدف له حكومة الخديو من الأخطار.

و بالطبع ، وكما نفهم الآن من تجاربنا المعاصرة المريرة ، فقد أثارت هذه المذكرة سخط الأمة ، واعتبرها الزعماء والنواب على نحو ما اوحت به تدخلاً من الدول الأوروبية في شؤون مصر الداخلية ، واعتداء على استقلالها وتحريضاً للخديو على مقاومة الأمة.

الساسة يتبينون الحقيقة لكنهم يبقون مختلفين

تبين للكافة بوضوح أن غرض الدولتين خلق اسباب غير مشروعة للعبث بمشروع الدستور قبل أن يتم وضعه ، فقد أعقب المذكرة اعتداء آخر وهو طلب الدولتين ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وفي خلال ذلك كانت اللجنة التي ألفها مجلس النواب لفحص القانون الأساسي (الدستور) تتولى مهمتها مع ان القانون الأساسي كان ينص بوضوح على احترام اتفاقات مصر الخاصة بتسوية الديون ، ولم يكن هناك ما يسوغ للدولتين أن تطلبا حرمان مجلس النواب حق تقرير الميزانية .

حكمة شريف باشا و طموح البارودي

ذهب المؤرخون منذ عصر الأسرة العلوية وأيدهم الأستاذ الرافعي والمؤرخون الاكاديميون المعاصرون إلى القول بأن شريف باشا كان قد رأى من باب الحكمة في تجاوز هذه الأزمة السياسية ألا يبيت مجلس النواب بقراره النهائي في المادة المتعلقة بالميزانية ويرجئها إلي حين ، حتى تنجلي الغمة ، وبذلك يتفادى التدخل المسلح من جانب إنجلترا وفرنسا ، والتأجيل في ذاته لم يكن مضيئاً لحقوق الأمة في الدستور ، لأن وضع الدستور قد يستغرق وقتاً يطول أو يقصر على حسب الظروف والملايسات ، فكان من المستطاع تفادي الأزمة بتأجيل البت في هذه المادة .

العرايبيون و البارودي يتشبثون بالاندفاع

طلب شريف باشا من العرايبيين أن يمهلوه حتى يعالج الأزمة بالتريث ومفاوضة الدولتين في شأنها. لكن طموح محمود باشا سامي البارودي إلي رئاسة الوزارة عقّد الأزمة ، لأنه وهو وزير الحربية في وزارة شريف باشا جعل العرايبيين يتشبثون برأيهم ويرفضون التأجيل ، ويقرون مادة الميزانية فوراً ، كما وضعتها اللجنة .

وقد رتب البارودي باشا كما يقول المؤرخون المتأثرون بفكرة حماسة العرايبيين و حماقتهم (أو انعدام حكمتهم) على هذه الخطة وصوله إلي رئاسة الوزراء ، لأنه كان مفهوماً أن رفض النواب رأي شريف باشا يؤدي طبعاً إلي استقالته ، فيدعى هو لتأليف الوزارة الجديدة .

وزارة البارودي و الاحتلال

وقد حدث ما رتبته العسكريون ، فاستقالت وزارة شريف باشا في ٣ فبراير ١٨٨٢ ، وألف البارودي باشا وزارته (الأولى والأخيرة) في اليوم التالي أي في ٤ فبراير ، وفي عهدها تلاحقت الأحداث ، ثم استقالت هي أيضاً وبعثها وزارة راغب باشا ، وفي عهدها ضرب الاسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية بالمدافع في ١١ يوليو ١٨٨٢ ، وفي ذلك اليوم المشؤم بدأ الاحتلال الذي استمر عقوداً بدلاً من شهور .

رئاسته الوزارة الرابعة

بعد ان احتل الإنجليز الإسكندرية وانسحب الجيش المصري منها بقيادة عرابي ، و ظهرت المأساة كاملة في صورة الاحتلال ، اتجهت الأنظار مرة ثانية إلي شريف باشا لإنقاذ الموقف ،

واستقال راغب باشا الذي خلف البارودي في رئاسة الوزارة ، وعهد الخديو توفيق إلي شريف باشا بأن يؤلف الوزارة . وفي شجاعة نادرة قبل شريف باشا ، وهو ممزق النفس أن يأتي ليواجه الكارثة الجديدة ، فألف الوزارة في أغسطس سنة ١٨٨٢ ، واشترك معه فيها مصطفى رياض باشا على الرغم من انه كان قد تولى الرئاسة من قبل .

دموعه حين رأى مظاهر الاحتلال

وقد روى الذين شهدوا يوم عودة شريف باشا مع الخديو إلي القاهرة بعد إخماد الثورة أنه لم يملك دموعه وبكى حينما رأى في طريقة إلي السراي الخديوية مظاهر الاحتلال واصطفاف الجنود الإنجليزية على جانبي الشوارع التي اجتازها الרכب .

كتاب تأليف وزارته الرابعة

نص شريف باشا في كتاب تأليف وزارته الرابعة ، على أنه يستهدف أن يحقق المبادئ التي جعلها برنامجاً لوزارته السابقة ، وأولها إقرار النظام الدستوري ، وقال في كتابه للخديو في هذا الصدد:

" أعرض لسموكم أن استدعائكم إياي لتشكيل وزارة جديدة في مثل هذه الظروف ، إنما هو دليل على استدامة ثقتكم في ، وأنتي بالامتنال لأمركم الكريم أبرهن على إخلاصي لوطني ولذاتكم السامية "

" إن المبادئ التي عرضتها على سموكم منذ سنة لاتزال موضوع اهتمامي ، فإن غايتنا هي نجاح الوطن مادياً وأدبياً ، وأما الوسائط التي يلزم أخذها لذلك فهي تعميم المعارف ، ونشر لواء العدالة ، وتوسيع نطاق المبادئ الحرة الملائمة لهيئتنا الاجتماعية والسياسية ، وكما أنه لا يلزم أن تتجاوز حدود لوائح ديسمبر ، كذلك لا ينبغي أن نحذف منها شيئاً ، ومن الواجب أن تتجه كل خواطرننا إلي موضوع واحد ، وهو صيانة البلاد ، وعليه فإنني استدعي للاشتراك في ذلك كل ذي غيرة وقلب مصري مخلص لذاتكم الشريفة "

تشكيل وزارته الرابعة من ٢١ أغسطس ١٨٨٢ - ١٠ يناير ١٨٨٤

- علي مبارك باشا	نظارة الأشغال العمومية
- محمد قدرى باشا	نظارة المعارف العمومية
- حسين فخري باشا	نظارة الحقانية
- علي حيدر باشا	نظارة المالية
- عمر لطفي باشا	نظارة الجهادية والبحرية
- محمد زكي باشا	نظارة الأوقاف
- أما وزارة الداخلية	فقد تعاقب عليها مصطفى رياض باشا
	و أحمد خيرى باشا وإسماعيل أيوب باشا

أمله في أن ينتهي الاحتلال سريعا

كان شريف باشا حين قبل رئاسة الوزارة يظن أن من الممكن أن تنتهي فترة الاحتلال العسكري الإنجليزي ، وأن يفِيّ الإنجليز بوعدهم بالغاء بمجرد توطيدهم لمركز الخديو توفيق ، ويبدو بوضوح أنه لم يكن يتصور أن الانجليز جاءوا لحساب أنفسهم لا لحساب الخديو توفيق ، ولهذا فانهم ظلوا يحتلون البلاد ويسيطرون على حكمها عقودا لا أسابيع ، بل وأصروا على محاولة تقسيمها بسلخ السودان عن السلطة المركزية في القاهرة .

و على نحو ما هو مشهور ومعروف فقد ظل شريف باشا يقاوم البريطانيين إلي أن ظهرت نواياهم الاستعمارية في فصل السودان عن مصر ، حين انتهزوا فرصة الثورة المهدية ليكرهوا الحكومة المصرية على التخلي عن السودان فوقف شريف باشا ضد البريطانيين ، وقال كلمته المشهورة : " إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا "

معارضته في خضوع الوزراء للمعتمد البريطاني

يذكر التاريخ لشريف باشا أيضا معارضته للبريطانيين فيما كانوا قرروه من طلبهم (بلهجة الأمر) أن يخضع الوزراء المصريون إلي نصائح المعتمد البريطاني.

استقالته النهائية المسببة

لما أدرك شريف باشا أن الخديو توفيق يميل إلى قبول مطالب الإنجليز لم ير بدأ من استقالته من الوزارة في يناير ١٨٨٤ . وقد سجل شريف باشا على الاحتلال البريطاني عدوانه على حقوق مصر ، فلم بين استقالته على الأسباب الصحية كما جرت العادة بذلك ، بل ذكر الأسباب الحقيقية مشيرا الى أن الدولة الإنجليزية تطلب إخلاء السودان ، وهذا ما لا سبيل إليه ، و قال في هذه الاستقالة :

" ولا يخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظمات الشورية الصادرة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ التي نص فيها على أن الخديوي يجري أحكام البلاد باشتراكه مع النظام ، فبناء على ذلك نضطر هنا أن نطلب من مقامكم العالي أن تقبلوا استعفائنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية "

اعتزله السياسة

بهذه الاستقالة سجل شريف باشا احتجاج مصر على فصل السودان عن سلطتها ، وعلى تدخل الإنجليز في شئون الحكومة المصرية واعتدائهم على استقلالها . و بهذا الموقف المشرف ختم شريف باشا حياته السياسية .

وهكذا فإن شريف باشا توقف عن ممارسة السياسة في ١٨٨٤ أي قبل توقف نوبار ورياض عن المناصب الوزارية بعشر سنوات ، وقد بقيت لشريف باشا سمعته العالية في توجهاته الدستورية والوطنية وبقيت لرياض باشا أعماله وإصلاحاته واجتهاداته على حين بقي لنوبار دوره غير الوطني في التمكين للأجانب والامتيازات الأجنبية ثم تمكينه ومساعدته للمستعمر ، أما زميلهم

الذي يفوقهم قيمة وهو أبو التعليم علي باشا مبارك فقد بقي ذكره في التاريخ مهندساً منجزاً عالماً مسلحاً وذلك على الرغم من تحفظه على الثورة العربية.

أما خامس هؤلاء التنفيذيين النافذين وأكبرهم وآخرهم وصولاً إلى رئاسة الوزراء وهو راجب باشا فقد بقي له ذكره كأول محاسب ورجل مالية وموازنة وتخطيط مالي، وأول رئيس مجلس نيابي وإن كان ذكره السياسي والتاريخي أقل ظهوراً من رؤساء الوزراء الثلاثة الأوائل نوبار وشريف ورياض ومن المهندس العظيم علي باشا مبارك بالطبع.

و بالرغم من وصول البارودي المبكر إلى رئاسة الوزارة في ١٨٨٢ فإنه ينتمي من حيث المولد إلى جبل بطرس غالي وحسين فخري ومصطفى فهمي الذين يمثلون الجيل الثاني من رؤساء الوزراء فيما قبل ثورة ١٩١٩. وبهؤلاء الثمانية يكتمل تاريخ الرؤساء الوزراء المصريين قبل الحرب العالمية الأولى إذ لم يصل إلى هذا المنصب أحد غيرهم إلا الخديو توفيق نفسه الذي رأس الوزارة مرتين قصيرتين اولاهما في عهد والده و ثانيتهما في عهده هو نفسه .

عائلته

كما ذكرنا فقد تزوج محمد شريف باشا من ابنة سليمان باشا الفرنساوي و كان له منها ولد وابنتان، أما ابنه فهو محمد شريف باشا الذي كان وكيلاً لوزارة الخارجية، ولا يختلف أسمه (كما ذكرنا) عن أسم أبيه ولهذا السبب يعرف الأب احياناً باسم شريف باشا الكبير، وتزوجت إحدى ابنتيه من محرم شاهين باشا، والثانية من عبد الرحيم صبري باشا وهي والدة الملكة نازلي صبري ملكة مصر وشقيقها شريف باشا صبري وكيل وزارة الخارجية والوصي على عرش الملك فاروق في ١٩٣٦.

وفاته

بعد فترة من المرض توفي محمد شريف باشا في مدينة جراتس بالنمسا في ٢٠ إبريل ١٨٨٧ ونقل جثمانه لمصر وشيعه الألاف من محبيه في الإسكندرية ثم في القاهرة ، وكان تشييع جنازته في الإسكندرية ثم في القاهرة تعبيراً عن تقدير الأمة لهذا السياسي الوطني العظيم .

تكريم ذكراه

خلد المصريون ذكر شريف باشا بإطلاق اسمه على الشارع الذي يصل بين شارع فؤاد وباب اللوق وهو الآن أشهر شوارع الأطباء في وسط مدينة القاهرة، ومن العجيب أن هذا الشارع نفسه يسمى باسم نوبار من المبتيديان حتى باب اللوق ثم يسمى باسم شريف من باب اللوق وحتى يصل إلى شارع فؤاد عند عمارة الجندول ، كما تم إطلاق اسمه على شارع آخر مهم في قلب مدينة الإسكندرية.

الفصل السادس : مصطفى رياض باشا الذي كرهه الفرنسيون فكروا فيه المصريين

نبدأ الحديث عن مصطفى رياض باشا ١٨٣٤ - ١٩١١ بداية ثاقبة بما تعنيه كلمة ثاقبة من المعاني ، فنذكر ما نؤمن به بعد دراسة من أن كل مشكلته في السياسة أنه كان خصيما للفرنسيين لأسباب سيدركها القارئ من قراءة سيرته، و ذلك على خلاف ماكان الفرنسيون يتمتعون به من الدلال على نوبار باشا الذي كان من بدايته ربيهم ، وشريف باشا الذي كان زوجا لابنتهم ، و على مبارك الذي تعلم في بلادهم الخ ، و لهذا السبب فقد حظي رياض باشا بكل ما أمكن للفرنسيين أن يشوهوا به صورته حتى عند مواطنيه المصريين ، و حتى إن مكانته السياسية أصبحت مطلوبة للاغتيال والتنشويه فيما قبل الثورة العراقية ، مع أنه استقال من رئاسة الوزارة التي لم تشهد الاستقرار الا على يديه ، وحل محله شريف باشا مشترطا على العسكريين مرة بعد أخرى مع ألا يتدخلوا في الحكم ، لكنهم سرعان ما تدخلوا ، فاستقال هو الآخر.

ومن العجيب أن هذه الجزئية الواضحة الحدود والمعالم والبدايات والنهايات تكاد تكون غائبة تماماً عن اذهان المثقفين المصريين والعرب، فقد وصل تشويه الكتاب الفرنسيين (ومن ينقلون عنهم) لرياض باشا إلى الحد الذي قال عنه القنصل الفرنسي : إنه أسوأ من الأرمني يقصد نوبار، وكانت كلمة الأرمني في ذلك الوقت اشبه ما تكون بالتعبير عن سمة فظيعة . ومع هذا فقد كانت الدولة العثمانية بتسامحها وسموها تتيح الفرص للأرمن ولرياض وللقنصل الفرنسي، وتتيح لهم ان يتكلموا في السياسة على مثل هذا النحو.

اشتراكه في السعي لعزل الخديو إسماعيل

من العناصر الخفية في جوهر كراهية الفرنسيين لرياض باشا أنه كان من الذين سعوا في عزل الخديو إسماعيل في الوقت الذي كانت فرنسا قد أوشتكت فيه على السيطرة التامة على مصر، وهذا أيضا هو السبب غير المُعلن لتحمس بريطانيا إلى المسارعة في احتلال مصر في ١٨٨٢ قبل أن تسقط مصر في يد فرنسا ، وقد كان المجيئ بالخديو توفيق نفسه بمثابة خطوة ممهدة للاحتلال الإنجليزي الذي لم يكن على وفاق مع الخديو إسماعيل بالقدر الذي كان فيه الفرنسيون على وفاق معه.

محدودية رؤيته تجاه المؤامرة البريطانية

وهكذا نستطيع أن نفهم هذه الإجراءات المضطربة التي تمت بدءاً من عزل الخديو إسماعيل في ١٨٧٩ وانتهاء بالاحتلال البريطاني في ١٨٨٢، وبين هذا وذاك فقد قامت الثورة العراقية فأدت ما عليها مما تؤديه الثورات من دور وطني وإيقاظ وتنبيه لكن الثورة نفسها لم تنتبه بالقدر الكافي إلى عناصر كثيرة من عناصر المؤامرة، فتم الإيقاع بها، ومن هذه المواقف المؤامراتية ما قد نعتبره الآن أبرزها و هو المؤامرة التي تتمثل بجلاء لا لبس فيه في خيانة ديليبس للمصريين

وخداعه لهم لصالح البريطانيين، وبالطبع فإن هذه الخيانة وجدت ما يصادفها في أخلاق ديليبسب غير المتينة من ناحية، وفي عدائه الغريزي للمصريين بأكثر من عدائه للبريطانيين من ناحية أخرى، وحساباته التي وجدت أن بريطانيا قد رسمت خطة أكثر نجاحا من خطة بلده فرنسا في الاستيلاء على مصر ومن العجيب أن البريطانيين يشيدون بديليبسب ودوره الذي اداه لصالح بلد فرنسا على حين يعتبره الفرنسيون مشبوها ، أو فلنقل إنهم ينظرون إليه على الأقل أنه ليس فوق مستوى الشبهات .

كان يرى الأمور من منظار بيروقراطي

لم يكن رياض باشا نفسه واعيا لمثل هذه الحقائق، وبالطبع فلم يكن عرابي باشا وزملاؤه واعين لها ، لكن رياض باشا كان يرى الأمور من منظار بيروقراطي حاد الزوايا إن صح هذا التعبير ، ولهذا فإنه لم يستوعب الثورة العرابية ولا استوعب قلبها المطالب النيابية، ولا استوعب بعدها أسلوباً أمثل ولا أجدى للتعامل مع المحتل ، لكنه مع ذلك ، و في كل الأحوال لم يكن خائنا و إنما كان أقرب إلى أن يكون أميناً نزيها مخلصاً مصلحاً طموحاً راغبا في الخير والتقدم، محبا للوطن وللإسلام على نحو ما سنرى من سيرته وتعاقب الحوادث فيها.

مكانته في تاريخ حقبة

كان مصطفى رياض باشا (١٨٣٤ - ١٩١١) ثالث أفضل رؤساء وزراء مصر فيما قبل ثورة ١٩١٩ ، ليس في ذلك جدل كبير ولا قليل ، ونحن نعرف أن شريف باشا يحتل المرتبة السامية في وجدان المصريين بسبب جهوده ومواقفه على حد سواء حتى ان المؤرخين الأجانب يرون أنه قد نال من حب الشعب اكثر مما يستحق بيد ان هؤلاء قد فاتهم ان أيا من الاخرين لم يصل في جهده وتوجهاته و خياراته الى ما وصل اليه شريف باشا .

مقارنته بروساء الوزراء في حقبة

وإذا كان هناك من هو تال لمحمد شريف باشا في الأفضلية فإنه مصطفى رياض باشا ، فهو يتفوق على إسماعيل راغب باشا و على مصطفى فهمي باشا ، وعلى حسين فخري باشا كما أنه يتفوق بمراحل على بطرس غالي كما أنه لا وجه للمقارنة بينه وبين نوبار الذي لم يكن رئيسا للوزراء بقدر ما كان مندوبا للمستعمر أو المستغل الأوربي، أما الذي يسبق شريف باشا وبالطبع يسبق مصطفى رياض باشا في الأفضلية فهو الشاعر العظيم محمود سامي البارودي الذي كان رمزا لكل شيء جميل ، حتى وإن كانت مدته في رئاسة الوزارة قصيرة ، لكنه قبل كل شيء رمز للفكر والشعر والوطنية والاصالة والجمال والشجاعة والتضحية والفداء .

وقبل هؤلاء الرؤساء الثمانية فإن هناك شخصية وزارية قديمة كانت أكبر بكثير من أن تكون في موقع رئيس وزراء وهو علي مبارك باشا الذي صنع وجه مصر الحضاري في العهد الخديوي من خلال وزارات الأشغال والمعارف والأوقاف التي تولاها جميعا بعيداً عما يسمى بالوزارات السيادية و بعيدا عن الرئاسة الشكلية او البروتوكولية .

مقارنة رياض باشا بعلي مبارك باشا

ربما يدعوننا هذا المدخل إلى سؤال أنفسنا ماذا كان ينقص مصطفى رياض باشا ليكون في المكانة الفكرية ندا لعلي مبارك باشا و الإجابة بسيطة وتكمن في كلمتين هما التعليم والتنوير فقد قضى مصطفى رياض باشا حياته كلها موظفاً يترقى بعد أن يلم بكل شيء من خلال مواقع مثالية خاضها كلها بأمانة وشرف واجتهاد وتفوق وتجويد لكنه لم يتلق ذلك المستوى المتفوق من التعليم والتنوير اللذين تلقاهما على مبارك باشا واللذين كانا كفيين له بأبعاد أخرى في شخصيته تتخطى الأزمان التي مرت بها مصر و مرّ بها هو نفسه في تاريخ صعوده السياسي الوائق والمتقد.

من الجدير بالذكر هنا ان مصطفى رياض باشا بحكم بداياته المبكرة في خدمة الحكومة المصرية كان سابقا بدرجة ما على علي مبارك باشا الذي يكبره في السن بعقد كامل ، لذلك أن علي مبارك قضى شطرا من حياته في التعلم في مصر وباريس ، ولم تبدأ علاقته بالمناصب العليا إلا بعد رياض باشا .

إخلاصه لمصر

كان مصطفى رياض باشا مخلصا لمصر والمصريين ، ولهذا فإن اسمه وقع بسهولة (على يد الأجانب الذين لا يحبون مصر) في مأزق كراهية من لا يقدرون عمله، وانضباطه، وعلى رأس هؤلاء الكتاب و المؤرخون الغربيون الذين لا يريدون من مصر الا الحليب والطاعة ، وقد كان من هؤلاء أيضا للأسف الشديد أولئك العسكريون المصريون الذين جبلوا وتربوا على طاعة القوى بأكثر مما تربوا على طاعة المخلص، وهكذا فإنهم وجدوا في إطاعتهم لأوامر مصطفى رياض باشا ما ينتقص من قدرهم إذ لم يكن مصطفى رياض باشا متسلحا بالسلاح الذي يقتلهم به، والدليل على ذلك أنهم سرعان ما أطاعوا الانجليز لا لشيء إلا لأنهم كانوا يملكون السلاح.

علاقته بالفن والفن و حظه من الاستبداد

كان مصطفى رياض باشا محبا للفكر وللعلم ومقدراً لأهل الفكر والعلم بل كان أيضا محبا للفن وممارسا للفن ومحترماً لأهل الفن، وقد مكّنه الكادر الذي مارس فيه الموسيقى العسكرية في الجيش من أن يلم بأحوال الفنانين والذين كانوا يقومون بوظائف الفن ، وأن يساعدهم على وجودهم في مكانة متقدمة من المجتمع المصري، ولا يحسن أحد أن وجود فنانين من طراز عبده الحامولي ١٨٣٦-١٩٠١ على سبيل المثال و وصولهم إلى المكانة التي وصلوا إليها في البلاط الخديوي كان من الممكن أن يتم بغير حضور مصطفى رياض باشا وما رتبته تفوقه ومسلكه المنضبط والمستقيم من أوضاع أفاد منها تلقائيا الجو الذي شجع عبده الحامولي وغيره، وكل من كان قادرا على أن يفيد منها. كذلك فإن مصطفى رياض باشا هو الذي عرف شأن جمال الدين الأفغاني مبكراً وهو الذي رتب له الإقامة في مصر مع مرتب شهري يعينه على وظيفة الاستاذية الحرة، وهو ما لم يحدث حتى الآن لأي مفكر آخر على يد أي رئيس وزراء آخر.

نعرف أن الأدبيات الغربية إذ تدرك قيمة إخلاص مصطفى رياض باشا لمصر والمصريين فإنها تقفز على أي دور له حين يكون الدور مستحقاً للإشادة، لكنها حين تجد الفرصة لتقديم مصطفى رياض باشا في صورة السياسي المكروه، أو الوزير الذي هو محل النقمة، أو رئيس الوزراء الذي هو الموضوع البارز في ثورة الضباط ، فإنها تتبالغ في تقديم صورة منحازة ضده من قبيل أنه كان مستبداً مغروراً مكروهاً مع أنه كان ابن عصره، وابن ثقافة ذلك العصر الذي كان الاستبداد جزءاً من سماته ومقوماته.

نسبه ومعاناته من التعليقات المتعالمية

كان والد مصطفى رياض مديراً لدار سك العملة (دار الضرب بتعبير ذلك الزمن) و يشيع في الادبيات التي ينقل عنها العرب أن عائلته تركية ذات أصول يهودية من أزмир، و مع أن مصطفى رياض باشا كان بلغة الجماهير حريصاً على كل ما ينفع الإسلام والمسلمين فإنك تجد إشارات غريبة المنشأ إلى أنه قد يكون من يهود الدونمة، وهي المعلومة العابرة التي أصبحت بمثابة طعم للإسلاميين السلفيين والتمتاسرين لبدء هجوم روتيني يستوحي (من دون تصريح) كل جزئيات و طرز الهجوم الجاهز على أتاتورك .

ومن دون مناقشة لعلاقة السياسي بدينه أو نسبه فان هذه الإشارة تصبح أوتوماتيكياً بمثابة وصمة عار حتى لو كان الرجل الذي يثار حوله هذا اللغظ سياسياً بارزاً ذا صفحة مكشوفة و معلنة مثل مصطفى رياض باشا الذي لم يتورط فيما نعرف في أي شيء معاد للإسلام.

و هكذا تأتي الكتابات المعاصرة وتبدأ التعريف بالرجل على الطريقة التي تسارع إلى اللمز فنقول إن أصله غير معروف بدلاً من أن تقول مثلاً إن أصله مختلف فيه، ومن ثم يخصم الإسلاميون السلفيون من رصيد أنصارهم أو اصدقائهم شخصاً مهماً و يتطوعون بإهدائه إلى مزاعم الفخر اليهودية في أنها تمكنوا من الوصول إلى الرئاسة عبر من ساعدوهم على وجودهم المدسوس في المجتمع الإسلامي، وهكذا تتكاثر مع الزمن كتابات تصور مصطفى رياض باشا قريباً من هذا النمط الاتاتوركي بلا أي مرجع حقيقي ولا أي منطق واقع. ومن الطبيعي أن تجد اسم مصطفى رياض في قابل الأيام ضمن قائمة الأسماء التي يزعم السلفيون أن الدكتور الجوادى منخدع فيها والتي تضم محمد عبده وسعد زغلول و أنور السادات .

بداياته الوظيفية

في ١٨٤٨ بدأ مصطفى رياض باشا حياته الوظيفية في الرابعة عشرة من عمره (أو ربما وهو أصغر من هذا بعام أو عامين إذ تورد كثير من الروايات تاريخ مولده على أنه كان في عام ١٨٣٥ أو ١٨٣٦) في وظيفة لا تتطلب سناً أكثر من هذا السن، وإنما الأنسب لها أن يكون شاغلاً في هذا السن ، فقد كانت الوظيفة هي مبيض أي ناسخ يكتب بيديه صورة جديدة منمقة من المسودات المكتوبة بأيدي أنصاف الأميين، ويتولى تحرير هذه المواد في الصيغة الرسمية المتسقة مع النظام، وكان من الطبيعي أن تسند إليه أيضاً المسؤولية عن السجلات وهكذا تم تكليفه بقيد

الخلاصات، ثم بأن يؤدي وظيفة الكاتب في ديوان الوثائق حيث يسجل ما هو موجود في دفاتر السجلات الكبيرة.

عمله الموسيقي

وبعد عام أو حوالي عام انتظم مصطفى رياض باشا في سلك الموسيقى العسكرية وترقى في هذا السلك العسكري الفني مع ما كان من نبوغه وإظهاره مهارته كعازف متميز و ضابط ملتزم ، وأخذ يترقى وهو يمارس الموسيقى حتى وصل إلى رتبة البكباشي.

الوظائف العليا التي تولاهم ميكرا

على سبيل الاجمال فإن رياض باشا تولى شئون مديريات عديدة منها الجيزة والفيوم وقنا. كما تولى وزارات المالية والداخلية والمعارف والزراعة والتجارة،و ذلك قبل أن يتولى رئاسة الوزارة ٣ مرات . ففي ١٨٥١ كان مصطفى رياض باشا قد وصل إلى رتبة العقيد في معية عباس الأول، فأصبح مسئولاً عن ختم الوالي .

وفي ١٨٥٣ بدأ مصطفى رياض باشا تولى مناصب رفيعة فأصبح مديراً للجيزة ثم لأطفيح عام ١٨٥٤ ثم للفيوم ثم لقنا ثم انتقل ليكون نائبا لناظر السكك الحديدية ١٨٥٦ وفي العام التالي ١٨٥٧ أصبح حاكما لمنطقة وسط الدلتا (أي المنوفية والغربية) وكانت تسمى في ذلك العصر بروضة البحرين ونستطيع أن نستنتج أن هذه التسمية جاءت من وقوعها ما بين فرعي النيل : رشيد ودمياط. وصل مصطفى رياض باشا إلى رتبة الميرميران في ١٨٦٢ في نهاية عهد الوالي محمد سعيد باشا والى مصر بعد أن كان قد كان فصل من الخدمة على نحو ما كان شائعا في ذلك العهد.

مع الخديو إسماعيل

شهد عهد الخديو إسماعيل ارتفاع سهم رياض باشا حيث أصبح هو حامل الختم مع تولي الخديو الحكم ١٨٦٣ ثم أصبح في العام التالي في ١٨٦٤ عضوا في مجلس الأحكام وفي العام نفسه أصبح ناظراً للخاصة، لكنه طرد مرة أخرى من وظيفته في فبراير ١٨٦٨ ثم أعيد في أكتوبر من العام نفسه أمينا لخزانة الخديو وابتعثه الخديو إلى الأستانة وعاد منها مستشاراً لرئاسة المجلس المخصوص.

وفي ديسمبر ١٨٧٢ أصبح رياض باشا مستشارا لولي العهد الأمير محمد توفيق.

المناصب الوزارية

وفي العام التالي بدأ عهد رياض باشا رتبة بالمناصب الوزارية:

- ناظراً للمدارس والأوقاف و مستشاراً لناظر الداخلية أغسطس ١٨٧٣
- رئيسا لمحكمة الوصاية على الأيتام و رئيسا للمجلس الحسيني مارس ١٨٧٤
- ناظراً للخارجية (الأمور الإفرنجية) ١٨٧٥ ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٨
- ناظراً للمدارس والمعارف ١٨٧٦ - ١٨٧٧
- ناظراً للتجارة أكتوبر ١٨٧٧ - يونيو ١٨٧٨

النفي الاختياري

ترك مصطفى رياض باشا مصر إلى أوروبا مرتين بارزتين كانت الأولى في ١٨٦٨ حين فصله الخديو إسماعيل أو طرده من كل مناصبه لكنه عاد نفس العام إلى موقع الخازن الأول للمالية وكانت المرة الثانية في أثناء الثورة العرابية (سبتمبر ١٨٨١) لكنه عاد بعد الثورة.

في النظام الوزاري الحديث

لما بدأ النظام الوزاري الحديث في أغسطس ١٨٧٨ كان هو ثاني شخصية وزارية في ذلك النظام بعد نوبار باشا رئيس النظار وقد عين وزيراً للداخلية، ثم أسندت إليه وزارة الحقانية بصفة مؤقتة مع وزارة الداخلية في ثاني النظارات وهي النظارة التي رأسها ولي العهد الخديو توفيق.

أولى وزارات رياض باشا

بدأ الخديو توفيق عهده ١٨٧٩ بينما كان شريف باشا رئيساً للوزراء منذ أواخر عهد الخديو إسماعيل ، ثم شكل الخديو توفيق وزارة برياسته هو نفسه في ١٨ أغسطس ١٨٧٩ ، لكنها لم تستمر طويلاً، فبعد أقل من شهرين من حكمه ،استدعى رياض باشا من أوروبا لكي يتولى رئاسة مجلس النظار في ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ، ولتستمر هذه الوزارة لمدة عامين كاملين (سبتمبر ١٨٧٩ - سبتمبر ١٨٨١) وهي مدة أطول من مجموع مدد الوزارات الخمس التي سبقتها .

تنفيذه الناجح للسياسات الانكماشية

بدأت وزارة رياض باشا في تنفيذ الحلول الانكماشية القاسية من أجل انقاذ الحالة المالية للبلاد وهي نفسها الحلول التي يصنفها المؤرخون (الذين ينقلون عن الفرنسيين) على أنها مظاهر استبدادية أوحى بها الانجليز . وعلى سبيل المثال فقد انحازت الوزارة لفكرة إعادة سلطات المراقبين الماليين البريطانيين والفرنسي بدلا من أن تسير في طريق إعلان الإفلاس ، وبهذا وصفت وزارة رياض بانها مكنت الأوروبيين من التغلغل في كيان مصر الاقتصادي والمالي، و اضطرت هذه الوزارة كما نعرف الى بيع حصة مصر في الأرباح السنوية لقناة السويس، وأصدرت قانون التصفية، وهو قانون فرضته الدول الأوروبية لتسوية علاقاتها بالدائنين، وأساءت إلى الموظفين المصريين أشد الإساءة، فعزلت الكثيرين منهم.

بقيت البلاد في عهد وزارة رياض محرومة من الحياة النيابية مدة سنتين متواليتين، لم يجتمع خلالها مجلس جديد يمثل الأمة، ولا مجلس شورى النواب القديم الذي كان موجوداً من قبل. على وجه الإجمال فإن رياض باشا نموذج للرجل الحكومي الجاد غير القادر على السياسة في مستواها التعبوي او المعنوي او تجلياتها الزعامية ، و رغم ما يوصف به تلقائياً من الاستبداد فإنه لم يصل في استبداده الى مستوى إسماعيل صدقي باشا المتجبر أو الى مستوى محمد محمود باشا المتكبر وإنما هو على أقصى تقدير : سياسي متجهم، وهو معتز بكرامته، ويدفع ثمن اعتزازه من منصبه ومن سلوكه على نحو ما فعل حين ثار النزاع بين الخديو وكنتشنز، وانحاز إلى الخديو ، وعلى حين اضطر الخديو إلى الإذعان فإن رياض باشا أثر الاستقالة بدلا من الاعتذار .

وزاراته الثانية والثالثة

أما وزارته الثانية فهي الأطول عمرا فقد شكلها في يونيو ١٨٨٨ و قد بقي حتى خلفه مصطفى فهمي باشا (في أولي وزارته) في مايو ١٨٩١. وأما وزارته الثالثة فتولت الحكم ما بين يناير ١٨٩٣ وابريل ١٨٩٤ و قد بقي حتى خلفه فيها نوبار باشا في ثالث وزارته.

إيجابيات مصطفى رياض باشا

يمكن لنا أن نقول إن إيجابيات رياض باشا كثيرة ، و يمكن لنا أن نعدد منها:
أولها : دوره في إلغاء السخرة .

التعليم الوطني

ثانيها: اهتمامه بمؤسسة وطنية تتولى التعليم المصري الحديث، ومع أن علي مبارك معروف بأنه أبو التعليم فإن الذي بدأ الخيط هو رياض باشا الذي كان قد استعان بالخبير السويسري دروبك لتنظيم التعليم ثم كان هو الذي مكن لعلي مبارك أن يؤدي دوره العظيم، وقد كان من الهمة والذكاء بحيث فرض القوانين الحكومية على المدارس الأجنبية والوطنية على حد سواء.

مجدده في دار الكتب القومية

ثالثهما: إنشاؤه دار الكتب القومية وضمن تمويلها الدائم من خلال وقف خصصه لها يتكون من ١٨ ألف فدان من أجود الأراضي الزراعية يخصص إيراده كله للإنفاق على دار الكتب.

تمكينه للأفغاني و محمد عبده

رابعها: موقفه من استحضار أو استيفاد أو الترحيب بجمال الدين الأفغاني بكل ما كان الأفغاني يمثله من دعوة إلى النهضة والتحرر والتنوير والإصلاح، وقد تكفل بحمايته، وبالإنفاق عليه من خلال راتب شهري، ثم بتمكين تلاميذه وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده (وعدد من تلاميذ الأفغاني الآخرين) من مواقع التأثير ، كما أنه هو الذي تمكن من الحصول على العفو عن كثير ممن كانت الاتهامات دانتهم في الثورة العرابية التي كانت تعامل على أنها خيانة، ومن الإنصاف في هذا المقام أن نذكر أن مصطفى رياض باشا كان رجلا كبيرا ذلك أن الثورة كانت تنادي بإقالته ونجحت في هذا لكنه فيما بعد لم يجنح إلى عدا العرابيين والحقد عليهم مثل الساسة الآخرين.

إعادة تنظيم المالية المصرية

خامسها: جهده الجبار في إعادة تنظيم المالية المصرية بعد عزل الخديو إسماعيل وتولي الخديو توفيق ، وكانت الأحوال المالية قد اضطربت كما اضطرب المالبات في مثل هذه الظروف ولولا وجود كفاءة من طراز رئيسا للمجلس الحبسي في موقعه الحاسم والحصري رئيسا للنظار وناظراً للمالية والداخلية معا في وزارته الأولى (سبتمبر ١٨٧٩ - سبتمبر ١٨٨١) ما أمكن للدولة أن تستمر إلا بإعلان الإفلاس، وهكذا فإنه حما الاستقلال الوطني إلى حين أن ضيعه الخديو توفيق نفسه مع هزيمة العرابيين الذين يشاركون الخديو توفيق مسؤوليته .

سادسها: نجاحه في معارضة البريطانيين وفرملتهم وتقليل سيطرتهم المتوغلة على أجهزة الدولة عقب الاحتلال في ١٨٨٢ وهو هنا يتفوق على مصطفى باشا فهمي .

الإعلام والثقافة

سابعها: اهتمامه الفذ بالاعلام الوطني بدءا من تحويله الوقائع المصرية الى جريدة يومية بعد ان كانت مرتين في الأسبوع و مساندته لإنشاء صحيفة المؤيد للشيخ علي يوسف ولولاها لظلت الصحافة استثمارا اجنيا فكانوا يصفونها بأنها سورية إنجليزية أو سورية فرنسية . ويتصل بهذا اهتمامه الفذ بتشجيع الإنتاج الفكري والجمهور الرائدة كدائرة المعارف و المشروعات المبكرة للمعاجم و إحياء التراث .

سعيه في تشكل طبقة متوسطة مصرية

ثامنها: قدرته في وزارته الأخيرة (يناير ١٨٩٣ - أبريل ١٨٩٤) على مراعاة البعد الاجتماعي والعمل على تشجيع تشكل طبقة متوسطة مصرية وذلك بتخفيض الضرائب، واطلاق المزايا والأجور.

إنشاء المحاكم والسكة الحديد

تاسعها: مساندته لحركة إنشاء المحاكم الأهلية والشرعية في مقابل طغيان المحاكم المختلطة.
عاشرها: دوره التنموي في مد خطوط السكك الحديدية.

مع الزمن أصبح الأول بروتوكوليا ومعنويا

أصبح رياض باشا بمثابة الرجل الوطني الأكبر في مصر قبل ثورة ١٩١٩ بروتوكوليا ومعنويا ولهذا فإنه وقع عليه الاختيار لرأس المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في ١٩١٠ (كرد على المؤتمر القبطي) ولهذا فإن الكتابات الغربية تحاول أن تشوه صورته بكل ما يمكن وتحرص أن تنتج للمسلمين أنفسهم ما يشوهون به صورته، ولهذا تجد العسكريين الذين كتبوا التاريخ في عهدهم يركزون على مطلب عرابي بإقالة رياض باشا مع أنه استقال (مبكراً في سبتمبر ١٨٨١)، ولا يذكر هؤلاء جميعاً له مواقفه الوطنية الإصلاحية ولا التنويرية ولا الاجتماعية ولا السيادة في نزاع الخديو إسماعيل مع كرومر و كتشنر وبالطبع فإن الخديو عباس حلمي لم يكن قادراً على الوفاء له بما يستحق من التكريم والتقدير.

وفاته

توفي مصطفى رياض باشا في ١٨ يونيو ١٩١١ في عهد وزارة محمد سعيد باشا عن ٧٧ عاماً، وذلك بعد أن توفي راغب باشا في ١٨٨٥ و شريف باشا في ١٨٨٧ و نوبار باشا في ١٨٩٩ والبارودي باشا في ١٩٠٤ وبطرس غالي باشا (فبراير ١٩١٠) وحسين فخري باشا (٢٣ ديسمبر ١٩١٠). أما مصطفى فهمي باشا فهو رئيس الوزراء الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد مصطفى رياض باشا، و قد توفي بعده في ١٣ سبتمبر ١٩١٤

الفصل السابع : مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء الإنجليزي في القاهرة

التفريق بينه وبين المعماري العظيم الذي سمي باسمه

من المفترض أن مصطفى فهمي باشا (الأول) (١٨٤٠ - ١٩١٤) رئيس الوزراء لأطول فترة في تاريخ مصر أشهر من أن يميز بأن نقول عنه مصطفى فهمي باشا الأول، لكننا أصبحنا مضطرين إلى أن نميزه بالأول عن سمي مصطفى فهمي باشا الثاني (١٨٨٦ - ١٩٧٢) المهندس المعماري العظيم ووزير الأشغال (١٩٤٩). وقد كنا أول من أخذ ينبّه إلي التفريق بين مصطفى فهمي الأول ومصطفى فهمي الثاني علي الرغم من أنهما لم يوجدوا في الحقبة نفسها وعلي الرغم من أن الأول عسكري أخذ سمته السياسي بينما الثاني مهندس معماري شهير أصبح لفترة قصيرة وزيراً للأشغال التي كان الأول قد تولاها أكثر من مرة، وقد كان دافعنا إلى هذا التنبيه أننا بدأنا نجد خلطاً كبيراً بين الشخصيتين حتى في مصادر أجنبية محترمة ، وقد وصل هذا الخلط الى حد وصف الأول بأنه في الأصل مهندس ولهذا فإني أبدأ بأن أذكر أن الثاني هو المهندس الذي أبدع دار الحكمة، وجمعية المهندسين المصريين وأبدع أيضاً ما هو أهم من هذين بكثير في قيمته المعمارية والجمالية وهو ضريح سعد زغول باشا ، ومن هنا ومن باب الطرافة فإنه يمكن استخدام ضريح سعد للتفريق بين الرجلين فمصطفى فهمي الأول هو حمو (والد زوجة) سعد باشا صاحب الضريح ، أما مصطفى فهمي الثاني فهو مصمم ضريح سعد.

نشأته وأصل عائلته

يعود أصل مصطفى فهمي باشا إلي «كريت» التي ينظر إليها الآن كما لو أنها يونانية ، وكانت أسرته أسرة تركية عاشت في الجزائر ، وعقب احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ هاجر والده إلي مصر والتحق بالجيش المصري، وسافر مع الحملة المصرية إلي كريت لمساعدة السلطان العثماني في إخماد تمرد من تلك التي كانت الدول الغربية تؤججها ضد العثمانيين ، وفي كريت ولد مصطفى فهمي عام ١٨٤٠ .

استشهاد والده

كان والده من قادة القوات المصرية التي شاركت مع العثمانيين في حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ وقد استشهد في هذه الحرب وهو في رتبة الكولونيل ، وقد كفله ورباه عمه (خاله) محمد زكي باشا الذي أصبح وزيراً للأشغال العمومية .

تعليمه تدرجه في المناصب الإدارية

التحق مصطفى فهمي باشا بمدرسة الحوض المرصود، ثم انتقل إلى المدرسة الحربية بالقلعة، وكان يتولى نظارتها رفاة الطهطاوي، وتخرج ضابطاً، و بعد تخرجه ظل يرتقي فب المناصب العسكرية، وعين ياوراً للوالي عباس الأول، ومأموراً لضبطية الإسكندرية (١٨٧١ - ١٨٧٧)،

ثم ناظرًا للخاصة الخديوية، ثم سرتشريفاتي للخديو (وهو المنصب المسؤول عن استقبال ضيوف الخديو)، ثم تنبأ بمنصب محافظ القاهرة عام ١٨٧٣ مع احتفائه بمنصب ياور الخديو.

تركيب سكة حديد السودان وترقيته لرتبة الفريق

انتدب مصطفى فهمي باشا عام ١٨٧٤ لقيادة مأمورية تركيب سكة حديد السودان، ولما أنجز مهمته رُقي إلى رتبة فريق.

محافظا ووزيرا

عين مصطفى فهمي باشا محافظاً للإسكندرية (١١ أغسطس ١٨٧٤ - ١٣ أكتوبر ١٨٧٤)، ثم محافظاً للقاهرة مرة أخرى، فمحافظاً لبورسعيد والقناة مع إدارة محافظة السويس أثناء غياب محافظها، ثم عاد محافظاً للقاهرة للمرة الثالثة عام ١٨٧٨. وفي عام ١٨٧٩ تولى عدة مناصب منها: مديراً للمنوفية، فمحافظاً للإسكندرية للمرة الثانية (١٢ من إبريل ١٨٧٩ - ٢ يوليو ١٨٧٩).

أبرز شخصية إدارية في عصر الاحتلال

إذا كان التفوق في الإدارة العليا بكثرة المسؤوليات التي يتولاها صاحبها، فإن مصطفى فهمي يأتي في مقدمة الساسة المصريين جميعاً، وهو بلا جدال أبرز (الساسة/ الإداريين) في حقبة الاحتلال البريطاني لمصر ، وقد كان في الفترة الأولى من هذه الحقبة (١٨٨٢ - ١٩٠٨) موجوداً علي قمة الجهاز التنفيذي المتعاون مع الاحتلال (أو الخاضع له)، (أو المضطر إلي التعامل معه)، وقد عرف دوماً بأن لورد كرومر يعتمد عليه تمام الاعتماد، ويحترم رأيه، ويبالغ البعض فيعتقد أنه كان أقرب المصريين إليه ، ويبالغ آخرون فيصورونه رجل بريطانيا في الحكومة المصرية، وفي كل الأحوال فمن الواضح أن كيمياء التفاعل بين الجانبين كانت إيجابية.

هل كان انجليزيا صرفاً

تعود المؤرخون أن يظلموا مصطفى فهمي علي اعتبار أنه انجليزي صرف و اعتبره الكثير من المصريين رجل الإنجليز في مصر لكننا نختلف في هذا معهم، فقد اقتضت علاقة مصطفى فهمي بالإنجليز علي الطاعة لكنها لم تصل كما في حالة نوبار إلي العمالة أو كما في حالة بطرس غالي إلي الاستجابة لمخططاتهم علي حساب مصر وأمن مصر وشعب مصر وإنما كان مصطفى فهمي نموذجاً للضابط الملتزم الذي يمكن الإفادة منه في خلق عصر استقرار يمكن من إتمام كثير من مقومات البنية الأساسية علي نحو ما حدث في وزارته الثالثة و الأخيرة التي هي أطول الوزارات المصرية عمراً (١٨٩٥ - ١٩٠٨) ولهذا فإن مصطفى فهمي أفضل من راغب باشا الذي كان قليل الاتصال بالواقع المرير ، وأفضل من حسين فخري الذي ربما كان يحب الاستقلال لكنه لم يلبث إلا ثلاثة أيام وأفضل بالقطع من بطرس غالي ومن نوبار .

تاريخه مع المسئوليات الوزارية

استمرت مشاركات مصطفى فهمي باشا الوزارية قرابة ثلاثين عاماً حيث دخل الوزارة في رابع وزارة مصرية في يوليو ١٨٧٩، في السنة الثانية لبدء النظام الوزاري المصري ، وكان آخر

عهده بها نوفمبر ١٩٠٨، وإن كان بالطبع لم يشترك في كل وزارات هذه الفترة، لكنه اشترك في معظمها (١١ من ١٥) باستثناءات بسيطة كما سنرى ، وربما كانت قراءة تاريخه في الوزارات المتتالية كفيلة بتبيين توجهه السياسي وعلاقاته بزملائه أو أنداده في النخبة الحاكمة في ذلك الوقت: بدأ عهد مصطفى فهمي بالوزارة مع بداية عهد الخديو توفيق في يوليو ١٨٧٩، حيث عمل وزيرا في رابعة [٤] الوزارات المصرية وهي وزارة شريف باشا الثانية، أولي وزارات هذا العهد وفي هذه الوزارة بدأ عمله وزيرا للأشغال العمومية حتي تشكلت الوزارة التالية [٥] برياسة الخديو توفيق نفسه (أغسطس ١٨٧٩) فبدأ عهده بوزارة الخارجية، واحتفظ بالخارجية في الوزارة التالية [٦] برياسة رياض باشا (سبتمبر ١٨٧٩)، وفي الوزارة التي تلتها [٧] (وزارة شريف باشا الثانية في سبتمبر ١٨٨١) أيضا، فلما تشكلت الوزارة التالية [٨]، وهي وزارة الثورة العربية، في فبراير ١٨٨٢، وهي وزارة الثورة العربية بقيادة البارودي أصبح وزيرا للخارجية والحقانية معا، وهكذا زادت المسؤولية الملقاة عليه في عهد العرابيين (فبراير ١٨٨٢ - يونيو ١٨٨٢).

وكان من الطبيعي ألا يشترك مصطفى فهمي باشا في الوزارة التي شهدت هزيمة ثورة عرابي وهي وزارة راغب باشا (يونيو ١٨٨٢)، ولا وزارة شريف الرابعة (أغسطس ١٨٨٢)، لكنه عاد فاشترك في الوزارة التالية [١١] وزارة نوبار الثانية (يناير ١٨٨٤)، وقد عمل فيها وزيرا للمالية عند تكوينها ولأكثر من ثلاث سنوات (حتي مارس ١٨٨٧)، وكان هذا أول عهده بتولي المالية، وقبل نهاية عهد هذه الوزارة (بالتحديد في مارس ١٨٨٧)، وطيلة الأشهر الخمسة عشر الباقية من عمرها، جمع بين وزارتي الداخلية خلفا لمحمد ثابت باشا والحربية والبحرية خلفا لعبد القادر حلمي باشا (مارس ١٨٨٧ - يونيو ١٨٨٨)، وهكذا أصبح رصيده من وزارات الدولة ستا: الأشغال، الخارجية، فالحقانية، فالمالية، فالداخلية، فالحربية والبحرية. ثم عين مصطفى فهمي باشا ناظراً للحربية والبحرية في الوزارة التالية [١٢] التي تشكلت برياسة مصطفى رياض باشا الثانية (٩ يونيو ١٨٨٨ - ١٢ مايو ١٨٩١).

وصوله لرئاسة الوزارة

تولي مصطفى فهمي باشا تشكيل النظارة (الوزارة) الثالثة عشر [١٣] في تاريخنا فيما عرف باسم نظارة مصطفى فهمي الأولى (١٤ مايو ١٨٩١ - ١٧ يناير ١٨٩٢)، وتولي منصب ناظر الداخلية في هذه النظارة، ثم شكل نظارته الثانية [١٤] في (١٧ يناير ١٨٩٢ - ١٥ يناير ١٨٩٣) وتولي فيها أيضا نظارة الداخلية.

ابتعاده عن الوزارة

كان من الطبيعي أن يبتعد مصطفى فهمي باشا عن الوزارة عندما كلف بها حسين فخري باشا (يناير ١٨٩٣)، ورياض باشا (يناير ١٨٩٣ أيضا).

عودته ثم رئاسته

عاد مصطفى فهمي فاشترك في وزارة نوبار باشا الثالثة [١٦] (أبريل ١٨٩٤ - نوفمبر ١٨٩٥) وزيراً للحربية والبحرية علي نحو ما عمل من قبل مع نوبار باشا، ثم تولي هو نفسه رئاسة وزارته الثالثة (نوفمبر ١٨٩٥) [١٧] جامعا الداخلية مع الرئاسة طيلة أطول فترة في عهد الوزارات المصرية كلها (نوفمبر ١٨٩٥ - نوفمبر ١٩٠٨) فيما يعرف بعهد الاستسلام للاحتلال الإنجليزي.

الرقم القياسي للبقاء في الوزارة

لم يستمر أحد على الإطلاق في مقاعد الوزراء على النحو الذي استمر به مصطفى فهمي ، إذ انه كما ذكرنا و علي مدي ٢٩ عاما كان موجوداً لأطول فترة في ١١ وزارة من ١٥ وزارة تشكلت في تلك الفترة أي أنه لم يرغب إلا عن أربعة منها كانت الاوليان هما الوزارتان اللتان شهدتا هزيمة الثورة العربية (وزارة راغب باشا من يونيو ١٨٨٢ وحتى أغسطس ١٨٨٢) ووزارة شريف باشا (من أغسطس ١٨٨٢ وحتى يناير ١٨٨٤) إذ كان للمفارقة التي قد لا يتصورها القراء الآن محسوبا علي العربيين لأنه عمل معهم.

أما الوزارتان الأخريان فهما الوزارتان اللتان أعقبنا إقالته هو وتشكيل وزارة حسين فخري (التي استمرت ثلاثة أيام في مطلع ١٨٩٣ عندما رأى الخديو عباس حلمي أن يتخلص منه بعد عام من توليه مسند الخديوية) ، والوزارة التي تلتها والتي جاءت كحل وسط وهي وزارة رياض باشا التي استمرت من يناير ١٨٩٣ وحتى ابريل ١٨٩٤ ، وبهذا فإن مصطفى فهمي لم يرغب عن مجلس الوزارة طيلة الأعوام التسعة والعشرين إلا مرتين في أربع وزارات ولمدة أقل من ثلاثة أعوام.

ربطه بين عهدي توفيق وابنه عباس حلمي

إذا كان شريف باشا هو من ربط بين عهدي الخديو إسماعيل ونجله الخديو توفيق فتولي آخر وزارات إسماعيل (وزارته الأولى) وأولى وزارات توفيق (وزارته الثانية) فإن مصطفى فهمي باشا هو الذي ربط عهدي الخديو توفيق (وزارته الأولى) و الخديو عباس حلمي الثاني (وزارته الثانية) ، وهو ما تكرر مرتين بعد ذلك مع حسين رشدي الأكثر حظاً فهو الذي شهد نهاية عهد عباس حلمي (وزارته الأولى) وبداية عهد السلطان حسين (وزارته الثانية) كما انه شهد نهاية عهد السلطان حسين (وزارته الثانية) وبداية عهد السلطان فؤاد (وزارته الثالثة)، كما تكرر مع علي ماهر باشا الذي شهد نهاية عهد الملك فؤاد (وزارته الأولى) وبداية عهد فاروق (من دون أن يشكل وزارة جديدة إذ تولي الأمر مجلس الوصاية) كما شهد نهاية عهد فاروق وبداية عهد ٢٣ يوليو حين شكل وزارته الرابعة أولى وزارات الثورة.

التفريق بين وزارته الثلاث

رأس مصطفى فهمي باشا الوزارة المصرية ثلاث مرات، وكانت آخرها هي أهمها وهي أطول وزارة في التاريخ المصري، إذ استمرت ١٣ عاما متصلة (١٨٩٥ - ١٩٠٨)، أما وزارته الأولى من ١٨٩١ إلي ١٨٩٢ فكانت خلفا لوزارة رياض باشا، وأما الثانية فهي استمرار للأولى

من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٣، والفاصل بين وزارتيه الأولى والثانية هو وفاة الخديو توفيق وتولي الخديو عباس حلمي الثاني أما الفاصل بين وزارتيه الثانية والثالثة فتلاث وزارات هي وزارات حسين فخري الوحيدة، و مصطفى رياض الثالثة والأخيرة و نوبار باشا الثالثة والأخيرة التي اشترك فيها هو نفسه كوزير .

كان مصطفى فهمي كما أشرنا في كتابنا «كيف أصبحوا وزراء» صاحب الترتيب الثاني في عدد الوزارات التي اشترك فيها فيما قبل عهد ١٩٥٢، إذ اشترك في ١١ وزارة، من الوزارات الثمانية عشرة الأولى، وقد رأس ثلاثاً منها (شأنه في هذا شأن إسماعيل صدقي باشا)، ولا يسبقهما في كثرة عدد الوزارات إلا أحمد خشبة باشا الذي اشترك في ١٢ وزارة لم يصل إلى رئاسة أي منها ولم يطل عهده بالمنصب مثل مصطفى فهمي باشا .

تفسير الرافي لعودة مصطفى فهمي لرئاسة الوزارة

يروى أستاذنا الرافي أن السبب يعود إلى ما نشأ من الجفاء بين الخديو و نوبار باشا علي إثر موقف نوبار من مسألة رجوع إسماعيل باشا الخديو الأسبق إلى مصر، فقد ساءت حالته الصحية في أوائل سنة ١٨٩٥ وأرسل إلي حفيده الخديو عباس حلمي لكي يأذن له بالعودة إلى مصر لمراعاة صحته وشيخوخته، وكان الخديو عباس يميل إلي تحقيق هذه الرغبة، ولكن وزارة نوبار وجدت أن رجوع إسماعيل من منفاه غير مرغوب فيه من جانب الاحتلال، فرفضت الموافقة علي عودته بحجة أنها تخلق لمصر عقبات من جانب الدول التي اشتركت في خلعه، فأسرها عباس في نفسه وقد رغب عباس في أن يتخلص من وزارة نوبار في تلك السنة ولكن نوبار كان مؤيداً من الاحتلال، فلم يفكر في الاستقالة، فأسرها عباس في نفسه مرة أخرى، وأخيراً توصل إلي تنفيذ أمنيته في إقصاء نوبار، بأن أعرب للورد كرومر عن رغبته في إعادة مصطفى فهمي باشا، فلقبت الفكرة ارتياحاً في نفس اللورد كرومر الذي كان لا يفتأ يترقب الفرص لعودة مصطفى فهمي باشا إلي رئاسة الوزارة، لأن الإنجليز لا ينسون صنائعهم، فلما أحس نوبار بهذا الموقف قدم استقالته يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥، والى مصطفى فهمي الوزارة الجديدة في اليوم التالي، واحتفظ ببقية الوزراء الذين كانوا مع نوبار، وأضاف إليهم محمد عباني باشا وزيراً للحربية"

تفويضه نائباً للخديو

في ٢٥ مايو ١٩٠٥ أرسل الخديو عباس حلمي إلي مصطفى فهمي باشا مكلفاً له بتسيير شؤون البلاد أثناء سفره، على ان ينوب عنه فخري باشا حين يسافر هو الآخر:

«حيث إننا عزمنا بمشيئة الله تعالى علي السفر الي خارج القطر فقد أنبناكم عنا وأقمناكم مقامنا مدة غيابنا للنظر في أشغال حكومتنا وإصدار ما تستدعيه من الأوامر بما هو معهود فيكم من الروية وكمال الدراية، وعند عزم عطوفتكم أيضاً علي السفر ينظر مدة غيابكم سعادة حسين فخري باشا ناظر الإشغال والمعارف في أشغال الحكومة بالاتفاق مع حضرات النظار الباقين بما نعهده

فيهم من حسن الخبرة بالأعمال وما يقررونه تصدر به الأوامر تحت إمضاء سعادته، وقد أصدرنا أمرنا هذا للعلم به والعمل بموجبه.»

وزارته الأولى من ١٤ مايو ١٨٩١ - ١٧ يناير ١٨٩٢

إبراهيم فؤاد باشا	نظارة الحقانية
تكران باشا	نظارة الخارجية
حسين فخري باشا	نظارة الحقانية
عبد الرحمن رشدي باشا	نظارة المالية
محمد زكي باشا	نظارة الأشغال العمومية، ونظارة المعارف العمومية
مصطفى فهمي باشا	نظارة الداخلية
يوسف شهدي باشا	نظارة الحربية والبحرية

وزارته الثانية من ١٧ يناير ١٨٩٢ - ١٥ يناير ١٨٩٣

مصطفى فهمي باشا	نظارة الداخلية
إبراهيم فؤاد باشا	نظارة الحقانية
تكران باشا	نظارة الخارجية
حسين فخري باشا	نظارة الحقانية
عبد الرحمن رشدي باشا	نظارة المالية
محمد زكي باشا	نظارة الأشغال العمومية، نظارة المعارف العمومية
يوسف شهدي باشا	نظارة الحربية والبحرية

وزارته الثالثة من ١٢ نوفمبر ١٨٩٥ - ١١ نوفمبر ١٩٠٨

مصطفى فهمي باشا	نظارة الداخلية
إبراهيم فؤاد باشا	نظارة الحقانية
أحمد مظلوم	نظارة المالية
بطرس غالي باشا	نظارة الخارجية
حسين فخري باشا	نظارة الأشغال العمومية، نظارة المعارف العمومية
محمد عياني باشا	نظارة الحربية والبحرية
سعد زغول باشا	لنظارة المعارف العمومية

توليه ست وزارات من الوزارات الموجودة في عصره

ذكرنا بالتفصيل ان مصطفى فهمي باشا اشترك في ١١ وزارة من الوزارات الثماني عشرة المصرية الأولى مع انه لم يبدأ الا من الوزارة الرابعة ، وعلى صعيد آخر نقول : إنه يحتل أيضا الترتيب الثاني بين الذين تولوا أكبر عدد من الوزارات فيما قبل الثورة، إذ تولي ٦ وزارات

(ويشارك معه في هذا ستة آخرون) ولا يسبقهم إلا إبراهيم عبد الهادي (الذي عمل وزيراً لسبع وزارات)، بيد أن مصطفى فهمي يتميز عنهم بأنه تولى ٦ وزارات من أصل ٨ وزارات كانت هي كل الوزارات في زمنه، بينما كان العدد في زمن الباقيين قد وصل إلي عشر وزارات وأكثر.

الأحداث السياسية التي شهدت وزارته الطويلة

في العهد الطويل لوزارة مصطفى فهمي باشا الثالثة وقعت كثير من الأحداث السياسية التي لا ينسبها المؤرخون إليه وإنما يفضلون نسبتها إلى الخديو عباس حلمي أو إلى الوزراء الآخرين من قبيل بطرس غالي وزير الخارجية . فقد شن الجيش المصري ما عرف على أنه حملة السودان (١٨٩٦ - ١٨٩٨)، وتم استرداد السودان ، كما تم إبرام معاهدة ١٩ يناير ١٨٩٩، وهي الاتفاقية التي حولت لإنجلترا رسمياً الحق في الاشتراك في شؤون حكم السودان ورفع العلم الإنجليزي، وتعيين حاكم عام مصري للسودان بناء علي طلب الحكومة البريطانية. وفي عهد هذه الوزارة وقع حادث العقبة (أو طابا) مايو ١٩٠٦ كما وقعت حادثة دنشواي (١٣ من يونيو ١٩٠٦).

نجلزة منصب النائب العام

يرى أستاذنا الراجعي وينقل عنه المؤرخون أن عهد هذه الوزارة كان حلقات متصلة مترابطة من التسليم في حقوق البلاد ومرافقتها. ففي سنة ١٨٩٧ طلب اللورد كرومر تعيين إنجليزي نائباً عمومياً بدلاً من النائب العام المصري حمد الله وبهذا صارت سلطة النيابة وهيئتها تحت تصرف الإنجليز ، على نحو ما كانت وزارة الحقانية تحت سيطرة المستشار القضائي البريطاني.

غزارة إنجازاته التنفيذية

إذا كان من الإنصاف لمصطفى باشا فهمي أن نشير إلى ما تم من عهده من إنجازات تنفيذية فإن هذا سيعد ظلماً لكل رؤساء الوزراء الآخرين الذين لم يقضوا في المنصب مثل ما أمضى من مدة طويلة مكنته من أن تنسب كثير من الإنجازات الكبرى والتميزة إلى عهده من قبيل إنشاء خطوط الترام والسكك الحديدية ، وشبكات المياه والصرف الصحي والكهرباء ، وخزان (أو سد) أسوان القديم ، والعديد من القناطر والكباري والطرق والقصور والمباني والحدائق والمدارس والمساجد مما سنتحدث عنه في مواضع أخرى .

وفضلاً عن هذا فقد أنشئت في عهده مدرسة البوليس (الشرطة) عام ١٨٩٦، وأنشئ بها عام ١٩٠٣ قسم لتخريج كونستابلات مصريين.

أبرز الخسائر في عهده : بيع البواخر الخديوية

وفي ١٨٩٨ عقدت الحكومة صفقة كانت كما وصفها أستاذنا الراجعي وبالاً وخسراناً علي مصر، وهي صفقة بيع البواخر الخديوية بأبخس الأثمان إلي شركة ألن وألدرسن الإنجليزية وأقر مجلس الوزراء هذه الصفقة الخاسرة، دون بحث أو تحقيق، واكتفي بالبيانات التي أفضي بها المستشار المالي، ووقع علي العقد أحمد مظلوم باشا وزير المالية ، و كان بيع هذه البواخر بمثابة إنهاء للأسطول التجاري لمصر، بعد القضاء علي أسطولها الحربي. ومما أثبتته الراجعي في نقده

لهذه الصفقة المتخاذلة أن ثلاث بواخر من الإحدى عشرة باخرة المباعة كانت الحكومة قد اشترتها من مصانع إنجلترا بـ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه، أي أن ثمن الصفقة كله اقل من ثمن هذه البواخر الثلاث.

بيع أملاك الدائرة السنوية

ومن خسائر مصر في عهده أن الحكومة باعت في ١٨٩٨ تفاتيش الدائرة السنوية، وكانت أملاكها الزراعية تبلغ نحو ثلاثمائة ألف فدان، وكان هذا البيع سدادا لديون تلك الدائرة.

إنشاء البنك الأهلي

في سنة ١٨٩٨ صدر المرسوم بتأسيس البنك الأهلي وأعطته الحكومة امتياز إصدار أوراق النقد المصري، فصار بمثابة بنك الحكومة، وهو بنك أهلي شكلاً واجنبي فعلاً.

تركيا تنقذ مصر من بيع سكك حديد السودان

وفي سنة ١٨٩٨ شرع المستشار المالي البريطاني على نحو ما أثبتته أستاذنا الراجعي المؤرخ في بيع سكك حديد الحكومة في السودان إلى شركة إنجليزية، بحجة حاجة الحكومة إلى المال لتدبير نفقات الحملة على السودان، وكان الفضل لتركيا في وقف هذا البيع حين لجأ إليها الخديو عباس حلمي على نحو ما كان يلجأ كثيرا لتقليل طغيان البريطانيين و تجربهم لثروة مصر .

بناته

أنجب مصطفى فهمي ثلاث بنات أشهرهن هي السيدة صفية زغلول «أم المصريين» التي حظيت بأكبر قدر من التكريم، تزوجت سعد زغلول وهو مستشار في الاستئناف (١٨٩٨) ولم تنجب منه، وقد كانت تربية صفية زغلول التركية المحافظة والصارمة عوناً لها على الاندماج في المجتمع المصري قبل ثورة ١٩١٩ وبعدها، محتفظة بمكانة المرأة المحترمة والمحافظة والقادرة في الوقت نفسه على التواصل مع المجتمع السياسي الذكوري باحترام وتقدير. أما ابنتاه الأخرتان فهن قرينتا الدكتور محمود صدقي باشا محافظ القاهرة سابقاً، وإسماعيل سرهنك باشا مؤلف كتاب "حقائق الأخبار عن دول البحار .

علاقة سعد زغلول باشا بحميه مصطفى فهمي باشا

مضت علاقة سعد زغلول بحميه مصطفى فهمي باشا في إطار الاحترام الكامل، وقد دخل سعد وزارة حميه قرب نهاية عهدها وزيرا للمعارف (١٩٠٦)، وكان مرشحا لأن يخلف حماه في رئاسة الوزارة في ١٩٠٨، لكن الخديو عباس حلمي والانجليز آثروا اختيار بطرس غالي خلفا لمصطفى فهمي ليواصل ما يمكن تسميته بالانجلزة الشاملة .

رئاسته للمؤتمر القبطي

ترأس المؤتمر القبطي في أسيوط عام ١٩١١ والذي سمي بالمؤتمر المصري.

وفاته

توفي مصطفى فهمي باشا ليلة ١٤ سبتمبر ١٩١٤ في رمل الإسكندرية، علي إثر الشلل الذي أصابه عند رجوعه من أوروبا، ونقلت جثته من الإسكندرية إلى القاهرة حيث شيعت رسمياً.

الفصل الثامن : إسماعيل راغب باشا أول محاسب مصري وأول رئيس للبرلمان

كان إسماعيل راغب باشا ١٨١٩- ١٨٨٥ بمثابة أول محاسب مصري بالمفهوم العلمي للمحاسبة وليس بمفهوم باشكاتب الحسابات الذي يتمثل في كبار الموظفين المعاصرين له من طراز نوبار باشا ، أما هو فقد كان بإنجازاته وأسلوبه ومنهجه ألمع رجال الإدارة المالية في عصره ، و قد تفوق بالأسلوب العلمي والمنهجي و الأداء المؤسسي على مَنْ اشتهروا بقدراتهم التنفيذية ممن نالوا إعجاب أو محبة الفرنسيين والإنجليز، من قبيل هؤلاء الذين يصدق القول بأنهم كانوا متواطئين ضد مصلحة مصر ، وهو أول مَنْ أخذ بنظام الميزانية في مصر، وحصر المنصرف والإيراد، وهو الذي أنفذ قوانين الزراعة، وقانون إدارة الكتابة بالمعاونة، وأصول الكتابة والحسابات، وقانون الرواتب ، والأهم من هذا كله أنه هو الذي وضع اللائحة السعيدية التي أعطت الحق للفلاحين في تملك الأراضي الزراعية، بعد أن كانوا محرومين من هذا الحق.

المقارنة بينه وبين نوبار باشا

على صعيد السياسة و المناصب فإن إسماعيل راغب باشا يعرف في تاريخنا السياسي الموجز بأنه هو رئيس الوزارة المصرية في عهد الثورة العربية. و إذا كان نوبار باشا معروفاً بأنه أول رئيس لمجلس النظار في مصر (١٨٧٨) فإن إسماعيل راغب باشا قد سبقه إلى رئاسة أول مجلس للنواب (١٨٦٦) ، وهو المنصب الذي لم يصل إليه نوبار باشا .

ولعلي أشير هنا إلى ما أكرره من أن نوبار باشا بسليبه وتواطئه مع الأجانب كان سبباً مهماً من أبرز أسباب توريط الخديو إسماعيل لمصر في الديون التي أودت باستقلالها ، و قد أشرت كثيراً إلى أن وصول نوبار إلى صناعة القرار الاقتصادي كان بتمهيد و إحياء من الأوربيين في بعض الحالات ، أو بدعم و قبول منهم في حالات أخرى ، بينما كانت مصر تملك بديلاً أكثر إخلاصاً وأوفر خبرة هو إسماعيل راغب باشا الذي كان كما قلنا بمثابة أول محاسب مصري بالمفهوم العلمي للمحاسبة وليس بمفهوم باشكاتب الحسابات الذي يتمثل في نوبار باشا ، لكن هكذا كان حظ مصر العاثر في ذلك الوقت .

مقارنته بمن سبقوه إلى رئاسة الوزارة

كان إسماعيل راغب باشا سادس رئيس لمجلس النظار (الوزراء) فقد أصبح رئيساً لتاسع وزارة مصرية وقد سبقه إلى رئاسة الوزارة (في أقل من ثلاث سنوات من تأسيس النظام الوزاري) خمسة ، كان منهم ثلاثة من أنداده من كبار الموظفين بالإضافة إلى الخديو توفيق نفسه والبارودي باشا الذي دفعت به أحداث الثورة لرئاسة الوزارة. و ربما كان من المفيد أن نعقد مقارنة سريعة بين إسماعيل راغب و بين هؤلاء الذين سبقوه إلى رئاسة الوزارة ثم لحق بعضهم به في هذه الرئاسة التي ظلت متداولة بينهم حتى ١٨٩٢ .

- محمد شريف باشا (ابريل ١٨٧٩) المولود ١٨٢٣ وهو الذي ظل فاعلا في الحياة السياسية حتى نهاية عهد وزارته الرابعة في مطلع ١٨٨٤ ثم وفاته في ١٨٨٧ .

- نوبار باشا (أغسطس ١٨٧٨) المولود ١٨٢٥ وهو الذي ظل فاعلا في الحياة السياسية حتى نهاية وزارته الثالثة في ١٨٩٥ ثم وفاته ١٨٩٩

- مصطفى رياض باشا (سبتمبر ١٨٧٩) وهو أطولهم عمرا وبقاء ، وهو المولود ١٨٣٤ وهو الذي ظل فاعلا في الحياة السياسية حتى نهاية عهد وزارته الثالثة في ١٨٩٤ ثم وفاته في ١٩١١ .

- محمود سامي البارودي باشا (فبراير ١٨٨٢) المولود ١٨٣٩ والمتوفى ١٩٠٤ وهو ألمعهم وأخلصهم و أذكاهم و أسوأهم حظا فقد انتهى عهده برياسة الوزارة في ١٨٨٢ ليبدأ عهده بالنفي والتشريد والمرض حتى وفاته .

أما الخديو توفيق (فتولى رئاسة الوزارة في مارس ١٨٧٩) وهو المولود ١٨٥٢ وقد ظل فاعلا في الحياة السياسية حتى نهاية حياته وهو في الأربعين من عمره في ١٨٩٢ .

وهكذا نفهم أن راغب باشا كان أكبر هؤلاء سنا وأكثرهم خبرة كما انه كان أول من توفي منهم أيضا ثم تلاه شريف باشا الذي توفي بعده بعامين و إن كان البارودي أول هؤلاء جميعا خروجا من السلطة حيث عاش منفيا و مريضا أما من بقي على قيد الحياة و في السلطة حتى نهاية عهد الخديو توفيق فهما اثنان من هؤلاء هما : نوبار باشا الذي توفي ١٨٩٩ و رياض باشا الذي توفي في ١٩١١ . ومن الجدير بالذكر أن إسماعيل راغب باشا لم يعمل تحت رئاسة نوبار باشا في أولى النظارات ، وإنما بدأ مناصبه الوزارية (في ظل النظام الوزاري المصري) وزيراً للمالية في ثالث النظارات المصرية وهي وزارة شريف باشا (ابريل ١٨٧٩) بعد سبعة شهور من نشأة النظام الوزاري أغسطس ١٨٧٨ .

طفولته المثيرة الدالة على العبقريّة

ننتقل لنشير إلى جوهر الحقيقة فيما تذكره المصادر الصحفية من المعلومات التاريخية المثيرة عن راغب باشا ، فقد أتيج لهذا الطفل المسلم المخطوف أن يعرف و يتذكر اسمه الأصلي اسمه الكامل: إسماعيل أحمد حسن يني .

ولد هذا الطفل النجيب إسماعيل في بلاد المورة اليونانية في ١٨ أغسطس ١٨١٩ ، ودرس مبادئ العلم واللغات العربية والتركية والفرنسية، ولما انفصلت تلك البلاد عن الدولة العثمانية رحل منها أو بالأحرى رُحل منها أو هجر إلى الأناضول. و هنا يتواتر في رواية تاريخ إسماعيل راغب باشا أنه اختُطف وهو طفل ، اختطفته إحدى العصابات التي كانت تخطف الأطفال و الصبية في أثناء التهجير التالي للحروب ، وبيع كعبد مملوك ، و كان الذين اشتروه من المسلمين ، وهكذا فإنه عاد إلى أهل دينه الذي ولد به ، ولم يكن على ما تريد أن توحى به الروايات الموجهة أوربيا غير مسلم تحول إلى الإسلام بسبب شراء المسلمين العثمانيين له .

و الثابت أن راغب باشا جاء إلى مصر حوالي ١٨٣٠ (أي وهو في الحادية عشر من عمره) كملك لإبراهيم باشا وأنه انتظم في التعليم فأظهر تفوقا بارزا فنال أعلى شهادة متاحة في ذلك الوقت ١٨٣٤ وهي نفسها الشهادة التي مكنته من الالتحاق بخدمة الحكومة كمساعد ترجمة.

مغزى تسميته باسم راغب

ولقب في ذلك الحين براغب، و هو تلقب موح يدل على ما وجده فيه أولو الأمر من الذكاء والنباهة مما يجعلهم يتوسمون فيه أن يكون كالصدر الأعظم راغب باشا ١٦٩٨-١٧٦٣ الذي تنسب إليه مكتبة عظيمة في استانبول ، و الذي هو صاحب دواوين الشعر المعروفة ومؤلف الكتاب الشهير سفينة الراغب أو سفينة العلوم الذي يعد بمثابة موسوعة تعليمية مصغرة ، ومن الواجب أن نذكر هنا أن عصر راغب باشا المصري لم يمكنه من إسهام معرفي يماثل الإسهام المعرفي والثقافي والأدبي للصدر الأعظم التركي الذي سُمي على اسمه .

اللمعان المبكر في عهد محمد علي باشا

بدأ إسماعيل راغب باشا خدمته الحكومية منذ عهد محمد علي من قبل نوبار باشا بسنوات ، و ترقى في عهده ، ثم قدر له أن يعتزل الخدمة في عهد عباس الأول ، ثم عاد فتولى وظائف مرموقة في مواقع متقدمة مع ثلاثة من ولاية مصر المتتالين: محمد سعيد، وإسماعيل، وتوفيق ، حيث تولى في عهدهم مواقع وزارية فنال ثقتهم جميعا. وقد بدا لمعان راغب باشا يترسخ مبكرا جدا ، وقد كافاه محمد علي باشا مبكرا جدا برتبة ملازم أول، ثم رتبة يوزباشى، ثم صاغ وتولى رئاسة قلمي المحاسبة والإيراد، وذلك بعد توظيفه بأقل من عامين فقط .

نموذج لآليات الصعود في الحضارة الإسلامية

و هكذا فإنه رغم كل ما هو معتاد من الأرقام الكارهة للمسلمين (وللعثمانيين والأسرة العلوية) فإن رحلة طفولة وشباب إسماعيل راغب تدل دلالة واضحة على ذكاء ومرونة و عظمة آليات الصعود الاجتماعي في الدولة العثمانية، وولاياتها ، فهذا الطفل الذي حُطف في أثناء رحلة الهجرة من اليونان إلى الأناضول ، واشترته عناصر من حاشية السلطة العثمانية أو العلوية كعبد مملوك بيع في سوق الرقيق ، سرعان ما نال تقديراً رسمياً لذكائه فمُنح الرتب تباعا ، وبعد سنوات قليلة أقطعه الوالي محمد علي باشا ٥٠٠ فدان وهي نفس المساحة التي أقطعها لنوبار باشا .

صعوده الوظيفي

واصل إسماعيل راغب باشا ترقياته السريعة التي كان ينالها بسبب جهده ونجاحه في أداء عمله، وكان طابع هذا العهد هو الإنعام بالرتب العسكرية على من نسيمهم الآن بالموظفين المدنيين في سرعة بالغة لم يشهدها عصر آخر.. وشيبه بما حدث لراغب باشا من الترقى السريع ما حدث أيضا لأحمد عرابي ورفاقه، حتى إننا نعرف أن عرابي ترقى من تحت السلاح إلى رتبة أميرالاي في مدة قصيرة. وعلى سبيل الإجمال ، فقد رقى إسماعيل راغب باشا إلى رتبة بكباشي (١٨٣٩)، ثم إلى رتبة قائمقام (١٨٤٣)، ثم إلى رتبة ميرالاي (١٨٤٦) .

اعتزاله في عهد عباس

ولما تولى عباس باشا الأول الولاية اعتزل إسماعيل راغب باشا خدمة الدولة وبقي بعيدا عنها (١٨٤٨ - ١٨٥٣) .

مكانته في عهد الوالي محمد سعيد باشا

بدأ وصول إسماعيل راغب باشا إلى ذروة مجده منذ عهد الوالي محمد سعيد باشا الذي حكم مصر ما بين ١٨٥٤ و ١٨٦٣ ، ففي ذلك العهد أعيد راغب باشا إلى الخدمة ١٨٥٤ وكيلا للمالية، وبعدها رقى إلى وظيفة وكيل الخزينة واجتمع في يده الإشراف على وزارات الجهادية والخارجية والمالية فضلا عن المحافظة والضبطية، وقد أنعم عليه برتبة ميرميران مع لقب باشا (١٨٥٤).

و يُنسب إليه في تلك الفترة كثير من الفضل السياسي والتنظيمي ومن أبرز مآثره ما أشرنا إليه في مطلع الحديث عنه من دوره التاريخي في إصدار اللائحة السعيدية التي كانت مرحلة فاصلة مكنت المصريين من تملك أرضهم التي حرّمهم منها محمد على باشا بطغيانه وجبروته و ظلمه، كما كان لراغب باشا فضله البارز في كل القوانين المنظمة لأنشطة الزراعة، و يعود إليه الفضل ، في ذلك العهد الذهبي من النضج الحضاري المصري، في إقرار فكرة الميزانية ، و ما تؤشر به هذه الفكرة و تتطلبه من حصر علمي جاد للإيرادات والمصروفات ومن إقرار قانون واضح ومحدد لتنظيم الرواتب.

وقد ظل إسماعيل راغب باشا مستحوذا على ثقة الوالي محمد سعيد باشا، وعندما توجه هذا الوالي العظيم في زيارته التاريخية إلى السودان (١٨٥٦) صحبه معه بوظيفة ديوان أفندي، أي رئيس ديوان خديوي، وأنجز إسماعيل راغب باشا في السودان كثيرا من الترتيبات والنظم. ثم عين إسماعيل راغب ناظرا للمالية (١٨٥٨)، ثم ناظرا للجهادية (١٨٦٠)، وعين مفتشا للوجهين البحري والقبلي (١٨٦٢)، ثم أضيفت إليه أعباء وظيفة رئيس المعاونين (١٨٦٣) وأنعم عليه برتبة روملي بكليركي الرفيعة.

مسئوليته الوزارية قبل نشأة النظام الوزاري

توالى النظارات والمناصب العليا الموازية لها التي تولاها إسماعيل راغب باشا في السنوات العشرين ١٨٥٨ - ١٨٧٨ التي سبقت نشأة النظام الوزاري:

١٨٥٨ - ١٨٦٠	- ناظراً للمالية
١٨٦٠ - ١٨٦١	- ناظراً للجهادية
١٨٦٤	- ناظراً للداخلية (ندبا)
١٨٦٥	- ناظراً للداخلية
٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ - ١٤ يناير ١٨٦٧	- رئيساً لمجلس النواب
١٨٦٧	- ناظراً للداخلية

- رئيساً للمجلس الخصوصي ١٨٦٨

- ناظراً للزراعة والتجارة ١٨٧٥

وفي ظل النظام الوزاري المصري الذي بدأ عام ١٨٧٨ فإن إسماعيل راغب تولى وزارة المالية في ثالث الوزارات المصرية ، وهي وزارة شريف باشا (أبريل ١٨٧٩)، ثم أصبح رئيساً للوزراء في أثناء الثورة العربية ، ثم اعتزل المناصب والحياة السياسية .

تكريمه في عهد الخديو إسماعيل ثم إقصاؤه

كان إسماعيل راغب باشا أول مسئول حكومي يزوره الخديو إسماعيل في بيته، كنوع مقصود من التكريم والتتويج ، وكان الخديو إسماعيل حريصاً على أن يعبر له عن ثقته وامتثانه ويروى أن إسماعيل راغب باشا امتنع عن قبول ثلاثين ألفاً من الجنيهاً مكافأة من الخديو إسماعيل ذات مرة، لكن هذا لم يمنع أن يكون إسماعيل راغب باشا محلاً لسخط الخديو إسماعيل و غضبه و ظلمه في بعض الأوقات فقد كانت تلك هي طبيعة الأمور في ذلك العهد .

وقد نال إسماعيل راغب باشا كثيراً من التكريم من الخارج في ذلك العهد وحصل على عدة نياشين منها الوسام المجيدي، والوسام العثماني من الطبقة الأولى، ومن فرنسا حصل على وسام جوقة الشرف من الدرجة الثانية، ومن ألمانيا والنمسا وإيطاليا حصل على نيشان جران كوردون، كما حصل على نيشان شير خورشيد من إيران، ومنحته اليونان وكثير من البلدان نياشينها.

دوره في الحركة الوطنية والثورة العربية

كان راغب باشا منتمياً بكلية إلى توجهات و تطلعات الحركة الوطنية بل كان على رأس من أظهروا التأييد التام لتوجه عربي باشا ، ويُنسب إليه أن التدبير السياسي لإسقاط وزارة نوبار تم في بيته هو ، وهو ما ينسب في أدبيات التاريخ إلى ما يسمى بحركة حركة اللائحة الوطنية التي أنيط بها إسقاط تلك النظارة المشهورة (أو المسماة) بالنظارة الأوروبية (٢٨ أغسطس ١٨٧٨ – ٢٣ فبراير ١٨٧٩) ، وكان من أثر النجاح في تلك الخطوة أن أسندت الوزارة لشريف باشا، وعُين إسماعيل راغب باشا نفسه ناظراً للمالية، وشاهين ناظراً للجهادية.

دوره في تطوير السلطة التشريعية

وفي تلك الفترة تولى إسماعيل راغب باشا إعداد الدراسات التمهيديّة الخاصة بتطوير مجلس النواب المصري مُستعيناً بالتجارب الأوروبية.

موقفه المتتاليان من العربيين

و هكذا فإن يمكن القول مع المؤرخين بأن إسماعيل راغب باشا أيد الثورة العربية بل شارك فيها بقوة في البداية، لكنه فيما يبدو بعد ذلك بوضوح انفصل عن الثوار حين وجد الثورة عاجزة عن النجاح على الرغم من حماسه المبدئي الذي كان قد وصل إلى حد نصح العربيين بضرورة التخلص من الخديو توفيق، وهكذا فإنه وجد نفسه مضطراً إلى إثبات انقلابه على الثوار حتى أنه أبلغ سيمور قائد الأسطول الإنجليزي بالإسكندرية في ١٧ يوليو ١٨٨٢، بمخالفة عربي لأوامر

الخدو فيما يقوم به من وسائل الدفاع، وبعزم الخديو على عزله من منصبه، مما أضعف موقف أحمد عرابي . و فيما يبدو فإن إسماعيل راغب باشا فيما أثر عنه من التصريحات كان يُبرر موقفه ويقول بوضوح بأنه لم يكن قادراً على الاستمرار مع العرابيين بعدما رأى أنهم لن يستطيعوا النجاح ولا حسم المعركة لمصلحة الحركة الوطنية.

وزارته

لم تستمر وزارته إلا ٦٤ يوماً من ١٧ يونيو ١٨٨٢ وحتى ٢١ أغسطس ١٨٨٢ ويُذكر أن وزارته كانت هي أول وزارة تقدمت ببرنامج وزاري. وقد تولى هو نفسه نظارة الخارجية كما تولى حسن باشا شريعي نظارة الأوقاف ، و عبد الرحمن رشدي باشا نظارة المالية و محمود باشا الفلكي نظارة النافعة (أي الزراعة و الأشغال معا) .

مرضه و وفاته و ثروته

يُذكر إسماعيل راغب باشا كنموذج لقوة الإرادة إذ ظلَّ يعمل بجد ونشاط وهو مصاب بالشلل طيلة الأعوام الثمانية والعشرين الأخيرة من عمره : منذ ١٨٥٧، ويذكر أيضاً بحسن تدبير ثروته الشخصية ، ذلك ان حصر ثروته عند وفاته أظهر أنها بلغت ١٣ ألف فدان في القاهرة في مناطق السكاكيني ، وغمرة، والظاهر، في القاهرة، وفي منطقة قصر راغب باشا بالإسكندرية، وقصر البراموني، فضلا عن ٢٠٠ ألف جنيه ذهب في بنك كريدي ليونيه و ٣٠ ألف جنيه ذهب مودعة في بنك مشة.

شهرة ابنه

رُزق إسماعيل راغب باشا بابنه ادريس ١٨٦٢ - ١٩٢١ بعد أن فقد عدداً من الأبناء عقب ولادتهم ، وكان راغب باشا معنيا بابنه هذا عناية بالغة، حتى إنه كان يقضي في تعليمه ساعات طويلة. ومن الطريف أن معظم ما بقى له من الشهرة والذكر يرتبط بأنه والد هذا الابن المتميز إدريس راغب صاحب الثقافة الموسوعية، الذي كان من رجال القضاء ، وأحد أبرز مؤسسي النادي الأهلي ، و الذي عُد ولا يزال يُعد رائداً و رمزا للحركة الماسونية في مصر، حين كانت الماسونية لا تزال تتمتع بسمعة جيدة ، ومن العجيب أن الموقف الصحفي من إدريس راغب أصبح ينسحب أوتوماتيكيا على والده راغب باشا وإعادة كتابة تاريخه تبعاً للهوى الصحفي المصري المعهود في مثل حالته ، و هو نفسه والد زوجة محمد محمود باشا رئيس الوزراء المصري في عهدي الملكين فؤاد و فاروق أي أنه حمو رئيس وزراء ، وابن رئيس وزراء .

الفصل التاسع : فخري باشا أول الرموز المجهولة للاستقلال المصري في مواجهة الانجليز

حسين فخري باشا ١٨٤٣ - ١٩١٠ رمز من رموز الاستقلال الوطني المصري لم يلق حتى الآن حظه من التكريم ولا التقدير لأن الظروف مضت تلو الظروف فحالت دون الحديث الجاد عن دوره في الاستقلال ومكافحة الاستعمار والتبعية.

كان حسين فخري باشا أول وزير مصري يستقيل من منصبه احتجاجاً على عدم تفهم المستشار الإنجليزي لوزارته لرؤيته في وضع القوانين والنظم تبعاً لطبيعة الحياة المصرية والتشريعات المصرية، وكان خلفه مع المستشار الإنجليزي لوزارة الحقانية "سكوت" أبرز خلاف في ذلك الزمن [إن لم يكن الخلاف الوحيد] وقد دفعه هذا الخلاف إلى ان يُضخّي بمنصبه الوزاري في ١٨٩٠ في نهاية عهد الخديو توفيق، وبهذا شرع للوزراء المصريين القدرة على الخلاف مع المستشارين الانجليزيين والتمسك بما يرونه حقاً، وهو ما وظفه سعد زغلول باشا حين أصبح وزيراً للمعارف حيث استطاع أن يُنطح المستشار الإنجليزي الشهير دنلوب رأساً برأس، صحيح أن سعد زغلول كان محظوظاً بوقوف لورد كرومر بجواره في كثير من الخلافات، وهو ما قلّص من نفوذ دنلوب، وضخّم من نجاحات سعد زغلول ، لكننا لا نستطيع أن ننكر أن دور حسين فخري باشا كان سابقاً على دور سعد زغلول باشا ، وربما أن هذا ، من ناحية أخرى ، هو السبب الذي جعل حسين فخري باشا لا يعاني في الكتابات التاريخية من انتقاد صداقته للورد كرومر مثلاً على نحو ما نال سعد زغلول من تعريض وهجوم لا يزال مُستمرّاً.

رئيس الوزراء الذي أقاله لورد كرومر بعد ثلاثة أيام فقط

كان حسين فخري باشا في تصور الخديو عباس حلمي (وفي رأيي أيضاً) قادراً على أن يُقدم لمصر كيانا وزاريا قوياً ، وكان هذا هو السبب الذي جعل لورد كرومر يُسارع بالاحتجاج على إسناد رئاسة الوزارة إليه، وقد بلغ البريطانيون أقصى درجات الغضب في إبداء احتجاجهم على اختياره لرئاسة الوزارة حتى إنهم حركوا أسلحة و قوات وأصدروا بيانات، وفرضوا حالة من حالات الهجوم العسكري الحقيقي على الخديو عباس حلمي الذي كان لا يزال في بداية عهده بالحكم كما انه كان لا يزال دون العشرين من عمره.

تكوينه ومكانته بين أسلافه

حسين فخري باشا هو أول رؤساء الوزارة المصريين الذين تلقوا تعليماً مدنياً في أوروبا بعد أن تعلموا في مصر، توفي في نفس العام الذي توفي فيه بطرس غالي باشا ، و الراجح عندي أنهما ولدا في نفس العام ١٨٤٣ (و إن كانت سطوة عائلة بطرس غالي على تاريخه المكتوب أثرت لتاريخه أن يكون مولوداً في ١٨٤٦) ، وهما يمثلان مع مصطفى فهمي باشا (المولود ١٨٤٠) الجيل الثاني من رؤساء الوزراء المصريين من حيث تاريخ مولدهم ، بعد جيل الباشوات الأربعة

: شريف ونوبار ورياض وراغب ، والذين دخل في وسطهم البارودي المولود ١٨٣٩ ، وقبل الجيل الذي ينتمي إليه الباشوات سعد زغلول و عدلي ورشدي وسعيد وزيور ويحيى إبراهيم ، وهكذا فإن حسين فخري باشا ينتمي بالمولد إلي نهاية العقد الذي ولد فيه سلفه في رئاسة الوزارة مصطفى رياض باشا أصغر رؤساء الوزارة الثلاثة الأوائل (ولد رياض في ١٨٣٤ وولد حسين فخري في ١٨٤٣)، وقد توفي هو قبل رياض باشا بعام واحد.

مكانته المتقدمة في عصره

وإذا أردنا تصوير قيمة المكانة والقدرة التنفيذية والسياسية لفخري باشا في عصره ، فإنه يكفي أن نذكر أنه تولى وزارة الحقانية وهو في السادسة و الثلاثين ، و يكفي أن نذكر أن بطرس غالي باشا ، بكل ما حظي به من تدليل ودفع للأمام لم يصبح وزيرا ، إلا عندما أصبح فخري باشا نفسه رئيسا للوزراء بعد ١٤ عاما من توليه الوزارة .

مآثره في وزارة المعارف ومبانيها

يذكر لحسين فخري باشا كثير من الإنجازات في مجال التربية والتعليم في الفترة التي تولى فيها وزارة المعارف ، فقد كان هو (وليس غيره) أول من اهتم اهتمام مؤسسيا بالمباني التعليمية فخصص لجاناً هندسية تتولى صيانة هذه المباني، بل إنه صاحب الفضل في إنجاز عدد من البنايات التعليمية الضخمة التي لا تزال قائمة حتى عصرنا هذا كالمدرسة السعيدية والمدرسة السنوية كما أنه هو الذي أنشأ مبنى دار العلوم القديم القائم في حي المنيرة ، وكانت دار العلوم في ذلك الوقت تُسمى بمدرسة المعلمين الناصرية. وقد استمر بدعم هذا الاتجاه متعاوناً مع خلفه حين انفرد هو بوزارة الأشغال وخلفه سعد زغلول في وزارة المعارف.

إنجازه الذكي في تشجيع تعليم البنات

ومن أبرز هذه الإنجازات إنجاز مُبهر في فكرته ودلالته حيث قرر أن يُشجع تعليم البنات بأقصى مما كان ممكناً من تشجيع، فجعل الإعانة التي تقدمها الوزارة للكليات الأهلية تتضاعف في حالة كلّ تلميذة ، وكان التلميذة الواحدة بتلميذين، وهي فكرة ذكية وعملية ومُنجزة . على صعيد آخر كان حسين فخري باشا أول من قرّر تدريس الدين والسلوك في التعليم الابتدائي ١٨٩٧ .

اهتمامه بمدارس إعداد المعلمين

على صعيد آخر اهتم حسين فخري باشا بإعداد المدرس قبل توظيفه ، فأسس في مرحلة مبكرة مدرسة المعلمين الأهلية التي وُجدت على يديه هو ١٩٠٤ ، كما أنه هو الذي أنشأ مدارس خاصة بتخريج معلمات الكليات وهي مرحلة من إعداد و تعليم المدرسين تمثل المرحلة الأقل درجة من المعلمين الأولية ، وبدأ جهوده في هذا المجال من خلال قسم للمعلمات في مبنى المدرسة السنوية الثانوية.

المؤسسات العلمية

وعلى صعيد رابع فإنه في عهد حسين فخري باشا كوزير للمعارف انتعشت مؤسسات وطنية حضارية من قبيل المجمع العلمي والجمعية الجغرافية ولجنة حفظ الآثار العربية ولجنة العاديات (الأثار) المصرية.

إنجازاته في مجال الأشغال العامة

وفي مجال الهندسة والري فإن حسين فخري باشا هو الذي أنجز في عهده خزان أسوان القديم، وكلمته في افتتاحه ١٩٠٢ تمثل تعبيراً ذكياً عما وصل إليه من النجاح والإنجاز والتوفيق ، كما أنه هو الذي أنشأ أكبر عدد من القناطر بتولي وزير واحد للأشغال إنشائه ، وزود القناطر الخيرية نفسها بالهدارات الفاصلة ، و بهذا مكن مصر من الدخول في مرحلة من مراحل التخزين السنوي وضبط النهر، وتطوير نظام الصرف وري الحياض بالوجه القبلي

إنجازاته في مجال المباني

أما آثار حسين فخري باشا الخالدة في الأبنية الحضارية والثقافية فتتمثل في مبنى المحكمة الأهلية التي تُسمى الآن محكمة جنوب القاهرة بباب الخلق ، و في الناحية الأخرى من ذلك الطريق السلطاني العظيم تقوم مباني دار الكتب، ومتحف الفن الإسلامي فضلاً عن المتحف المصري.

في الحقانية

وفي عهد حسين فخري باشا المبكر كوزير للحقانية (في الثمانينات من القرن الثامن عشر) بدأت الجهود التي تولت تنظيم المحاكم الشرعية ووضع لوائحها على نمط حضاري. كما عمل علي تحويل المجالس القديمة إلي محاكم أهلية، ووضع مشروعات القوانين الخاصة بهذه المحاكم.

نشأته وتعليمه

ولد حسين فخري باشا بقصر والده في منطقة المغرلين بالقاهرة في ٢٥ سبتمبر ١٨٤٣، كان والده جعفر صادق باشا الشركسي حكمداراً للسودان ١٨٦٥

أبنائه

سمى حسين فخري باشا أحد ابنيه باسم والده جعفر وكان محامياً بارزاً ، أما ابنه الأشهر فهو محمود فخري باشا زوج الأميرة فوقية الابنة الكبرى للملك فؤاد وقد عمل وزيراً ثم سفيراً لمصر في باريس .

تعليمه وبعثته

تلقي حسين فخري باشا تعليماً مدنياً في المدارس التي أسسها محمد علي باشا في مصر، وأتم تعليمه المدني المصري بأن حصل علي أعلى الشهادات الدراسية المتاحة في سن العشرين، و صدر أمر بتعيينه معاوناً بمحافظة القاهرة (٧ مايو ١٨٦٣)، وقضى في هذه الوظيفة سنة ونصف سنة، ثم صدر الأمر في ١٣ نوفمبر ١٨٦٤ بنقله معاوناً في وزارة الخارجية، وبقي بها لمدة عامين، وأوفدته الحكومة (يناير ١٨٦٧) مندوباً في المعرض الأوروبي ضمن الوفد الذي بعثت به ليمثلها

في المعرض التي أقيمت في ذلك العام ، وبذل والده مساعيه حتي حصل علي الموافقة بإلحاقه بالبعثة التعليمية في فرنسا ، لكنه اضطر للعودة إلي مصر بسبب الحرب ، ثم عاد إلي فرنسا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وعاد إلي مدينة اكس، وتخرج في جامعتها ، وكان يفخر بأن شهادته قد "مهتت" بتوقيع الفيلسوف الشهير جول سيمون ١٨١٤ - ١٨٩٦ والذي كان رئيسا لوزراء فرنسا ١٨٦٧ - ١٨٧٧ .

صعوده الوظيفي

نال حسين فخري باشا تشجيع الخديو إسماعيل الذي منحه الرتبة الثالثة في ٢٢ نوفمبر ١٨٧٤ ، وبهذا تخطي حسين فخري باشا رتبتين دفعة واحدة، وهما الخامسة والرابعة ، وانضم إلى كبار الموظفين في وزارة العدل، ولم تمض سبعة شهور حتي عين وكيلا للأهالي لدي النائب العمومي بالمحاكم المختلطة، وقضي في هذه الوظيفة أربع سنوات.

توليّه الوزارة

وفي ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ (حين كان في السادسة والثلاثين من عمره) أصبح وزيرا للحقانية في النظارة (الوزارة) المصرية السادسة المشكّلة برئاسة رياض باشا في السنة الأولى من عهد الخديو توفيق ، و واكلب هذا أن ترقى من الرتبة الثالثة إلي رتبة الميرميران ، وظل حسين فخري باشا وزيرا للحقانية حتي استقالت وزارة رياض باشا (٩ سبتمبر ١٨٨١).

رئاسة بنك مينا البصل

تولي حسين فخري بعد ذلك رئاسة مجلس إدارة بنك مينا البصل (نوفمبر ١٨٨١)، وكان في ذلك العصر من بيوت المال التجارية المشهورة.

عودته للوزارة بعد الثورة العربية

عاد حسين فخري باشا إلي دخول الوزارة في وزارة شريف باشا الرابعة (أغسطس ١٨٨٢) و صدرت في عهده مجموعة من القوانين المهمة ومنها القانون النظامي، وقانون الانتخاب، كما ظهرت المحاكم الأهلية ونظامها الجديد، وبقي إلي أن استقالت هذه الوزارة (٧ يناير ١٨٨٤) حيث خلفتها وزارة نوبار باشا الثانية .

وفي ١٨٨٥ انتدبته الحكومة لحضور المؤتمر الدولي الذي عقد في باريس للإقرار بحياد قناة السويس ، وفي تلك الزيارة منحتة فرنسا وسامها العلمي.

شارك حسين فخري في الوزارة مرة ثالثة (١٨٨٨) في وزارة رياض باشا الثانية ، وبقي فيها إلي نهاية عهدها (مايو ١٨٩١) . ثم واصل عمله الوزاري في الوزارة التي خلفتها وهي وزارة مصطفى فهمي باشا الأولى ، لكنه استقال وحده منها في أواخر تلك السنة فلم يكن من الوزراء الذين شهدوا الانتقال من عهد الخديو توفيق إلي عهد الخديو عباس حلمي الذي ورث من والده وزارة مصطفى فهمي باشا .

إسناد رئاسة الوزارة إليه

وبعد عام من تولى الخديو عباس حلمي الحكم عهد إلى حسين فخري باشا بتشكيل وزارة جديدة فشكلها في ١٥ يناير (١٨٩٣)، لكن رئاسته للوزارة لم تدم سوى ثلاثة أيام فقط، وهي أقصر وزارة في تاريخ مصر الحديث. ومع أن رئاسته للوزارة لم تزد على ثلاثة أيام فإنها شهدت دخول وزيرين جديدين للوزارة هما أحمد باشا مظلوم للحقانية و بطرس غالي باشا للمالية ، وقد رأس أولهما البرلمان و رأس ثانيهما الوزارة .
وقد خلفه في رئاسة الوزارة رئيسه السابق مصطفى رياض باشا (وذلك كحل وسط بين اختياري الخديو والمندوب السامي) .

عودته للوزارة للمرة الأخيرة

ثم تشكلت وزارة نوبار باشا الثالثة (إبريل ١٨٩٤) فتولي حسين فخري باشا فيها وزارتي الأشغال العمومية والمعارف العمومية، وبقي في منصبه هذين في الوزارة التالية وهي وزارة مصطفى فهمي باشا، لكنه قرب نهاية العمر الطويل لهذه الوزارة ترك وزارة المعارف (١٩٠٦) ليخلفه فيها سعد زغلول، وانفرد بوزارة الأشغال العمومية حتى نهاية عهد هذه الوزارة .

وفاته

توفي حسين فخري في ٢٣ ديسمبر ١٩١٠ عن ٦٦ عاما .

الفصل العاشر: بطرس غالي الباشا الصعيدي الذي لم يدرك الفرق بين الزيادة والسيادة

بطرس بطرس غالي باشا ١٨٤٣ - ١٩١٠ هو ثاني رئيس للنظار ممن ولدوا في مصر من أصول مصرية ، يسبقه إلي الموقع الأول الشاعر الأعظم محمود سامي البارودي باشا ١٨٣٩ - ١٩٠٤ ، وبهذا تصيح المقارنة ظالمة لبطرس بطرس غالي باشا إلي أبعد الحدود ، فالبارودي الذي لا يكبره كثيرا رجل دولة و مفكر و مثقف و شاعر و محارب و قائد و ثائر و قد وصل إلي القمة في كل هذه الميادين ، كما و صل أيضا لرئاسة الوزارة قبل بطرس بطرس غالي باشا بستة وعشرين عاما أي بأكثر من ربع قرن ، وهذا حقه ومقامه ، لكن بطرس بطرس غالي باشا مع هذا ، و رغم هذا ، يظل متميزا .

وجه المفارقة في سمعته السياسية

مع أن بطرس بطرس غالي باشا صعيدي فتح عربي التربية و الفهم ، شرقي الثقافة و التقاليد ، فإن جوهر مأساته التي نزلت بقيمته في تاريخ وطنه والتي أودت أيضا بحياته هي أنه علي الرغم مما هو معروف عن أهل الصعيد من تقديسهم للبالغ للأرض و حقوق السيادة والملكية فإنه نظر للأمور الوطنية و الاستقلالية نظرة محاسبية بحتة ، و ظن أن زيادة المدخول و الإيرادات أو نقص المصروف و النفقات يعادلان في الأهمية بل يسبقان فكرة الملكية والسيادة ، ولست أعرف كيف طأوعه قلبه الصعيدي علي هذا الفهم الاختزالي أو الاستنكافي .

وهكذا كانت فكرته في مد امتياز قناة السويس وهكذا كانت فكرته أيضا في قبول الإقرار بثنائية السيادة المصرية البريطانية علي أرض السودان سببا في اغتياله ، ومعاناته، و سوء الظن به ، وبصورته ، و ضعف مكانته في التاريخ .

نشأته وتعليمه

حسب التاريخ المفضل عند العائلة فقد ولد بطرس بطرس غالي (١٨٤٦) لكن الثابت في مصادر كثيرة أنه ولد في عام ١٨٤٣ ، وكان مولده في قرية أعلم من أهلها أن بيته لا يزال موجودا فيها ، وهي قرية قمن العروس بمحافظة بني سويف ، حيث كان أبوه غالي نيروز بك ضمن العاملين في دائرة أملاك الأمير مصطفى فاضل باشا ١٨٣٠ - ١٨٧٥ شقيق الخديو إسماعيل و والد الأميرة نازلي فاضل ١٨٥٣ - ١٩١٣ .

وبدأ بطرس دراسته في الكتاب ، وحفظ بعض القرآن الكريم إن لم يكن كثيرا منه .

مدرسة حارة السقاين ثم مدرسة الامراء

ثم ألحقه والده بمدرسة حارة السقاين التي أسسها البابا كيرلس الرابع ١٨١٦ - ١٨٦١ ، وكان ذلك البابا صديقا لوالده، وفيها درس العربية واللغتين الإنجليزية والفرنسية، ثم ألحقه بمدرسة الأمراء التي أسسها الأمير مصطفى فاضل لأنجال العائلة الخديوية و من في سنهم من العائلات

المصرية، وفيها أتقن اللغتين التركية والفارسية. وبعد إتمام بطرس بطرس غالي باشا الدراسة المتاحة في زمنه عمل مدرسا بمدرسة حارة السقاين، وكان ناظر المدرسة يومئذ هو يعقوب بك نخلة رفيعة، لكنه سرعان ما وجد أن طموحاته تفوق مثل هذا العمل، ويروي أنه أراد نيل وظيفة في السكة الحديد فكتب للمرحوم عمر باشا لظفي قصيدة بهذا المعنى فكان رده عليه: «عندنا من هذا كثير».

نيله دبلوم الترجمة وبداية صعوده

ترك بطرس بطرس غالي باشا مهنة التدريس ليستكمل تعليمه فالتحق بمدرسة الألسن التي أسسها رفاعه رافع الطهطاوي ، ومكث بها ثلاث سنوات أتقن خلالها مادة الترجمة، وحصل علي دبلوم الترجمة الذي أهله للعمل في وظيفة مترجم في مجلس التجارة بمدينة الإسكندرية في أوائل عام ١٨٦٨، وكان بطرس بطرس غالي باشا حريصا علي أن يروي أنه فاز بهذه الوظيفة من خلال المسابقة التي تقدم لها عدد كبير. ظل بطرس غالي باشا يحوز ثقة رؤسائه حتي صار باشكاتب ذلك المجلس، ثم نقل (١٨٧٣) إلي نظارة الحقانية، وعين بدرجة باشكاتب في نظارة الحقانية، وفي ذلك الوقت عرفه شريف باشا ناظر الحقانية ووثق به، وكان يكلفه بترجمة أوراق الحكومة من التركية والعربية إلي الفرنسية وبالعكس، وأنعم عليه في ذلك العصر بالرتبة الثانية. ولما ارتبكت الأوضاع المالية للحكومة المصرية وعقدت لجنة للتحقيق (١٨٧٦) وارتأت هذه اللجنة أن تشكل لجنة من مندوبي عموم الدول لعمل تصفية لمالية الحكومة المصرية اختير بطرس بطرس غالي باشا نائبا عن الحكومة المصرية، وكان ذلك في عهد وزارة رياض باشا . وفي تلك الفترة تشكلت أيضا لجنة لتعديل الضرائب تحت رئاسة رستم باشا ، واختير بطرس بطرس غالي باشا عضوا فيها .

تعرفه بالسفير ريفرس ولسن الوزير الإنجليزي

وفي تلك الفترة تعرف بطرس بطرس غالي باشا علي السفير ريفرس ولسن الوزير الإنجليزي في وزارة نوبار باشا ، وتقرب إليه في وقت كان الإنجليزي يبحث عن يقربه منه ، لسبب معروف ، فكان هذا الوزير الإنجليزي الذي هو إرھاصة الاحتلال الأولي ، دافعا لكل ما أحرزه بطرس باشا من صعود في عهد الاحتلال .

دوره في عهد الخديو توفيق

بعد خلع الخديو إسماعيل ١٨٧٩ وتولية الخديو توفيق عين بطرس بطرس غالي باشا وكيلا لنظارة الحقانية، وفي مطلع الثورة العرابية (١٨٨٢) وبناء علي طلب مجلس النظار برئاسة محمود سامي البارودي باشا أنعم عليه برتبة «الميرمران» فكان أول من حازها من الأقباط المصريين، ولما تشكلت وزارة شريف باشا في أثناء الثورة العرابية أضيفت إليه أعباء سكرتيرية مجلس النظار لبعض الوقت ثم عاد ليقترصر علي وظيفته في وكالة وزارة الحقانية.

دوره بعد فشل الثورة العرابية

ولما انهزم العرابيون في التل الكبير وعادوا إلي القاهرة ، كان بطرس بطرس غالي باشا من أنصار الاستسلام السريع للخديو ، وقال للزعيم أحمد عرابي فيما يرويّه هو: " إن الأوفق أن تجعل تاريخك ناصع البياض ولا تشوبه بمداد السواد(!!!) وبناء علي ذلك عُهد إليه هو ومحمد رعوف باشا وعلي الروبي بتقديم عريضة إلي أولي الشأن في الإسكندرية نائبين عن العرابيين(!!)

دوره في معاونة محمد قذري باشا

في هذه الفترة من عمله المتصل في وزارة الحقانية كان بطرس بطرس غالي باشا أحد الذين ساعدوا المفكر القانوني الإسلامي محمد قذري باشا ١٨٢١- ١٨٨٦ في إنجاز مشروعه في تطوير القانون المصري وإعادة صياغته باللغة العربية معتمداً علي تويب القانون الفرنسي، كما كان له دوره في المساعدة في إنشاء المحاكم الأهلية بالقاهرة والإسكندرية وطنطا وشبين الكوم وبنها والزقازيق.

في وكالة نظارة الحقانية

لم يكن أداء بطرس بطرس غالي باشا في وكالة وزارة الحقانية يحظى بالقبول علي الدوام، وقد اصطدم بكثير من علماء الدين الإسلامي، و رجال الكنيسة القبطية علي حد سواء ، وعلي رأسهم المفتي الشيخ محمد المهدي العباسي والبابا كيرلس الخامس .

إنشاء المجلس الملي

توترت علاقة بطرس غالي باشا بكثير من الأقباط حيث رفع شعار «الإصلاح الكنسي» وتطوير المؤسسات القبطية»، وقد نجح في إنشاء أول مجلس ملي، وهو المجلس الذي انعقد في ١٦ يناير ١٨٧٤، وانتخب هو نفسه نائبا لرئيس هذا المجلس، ثم رئيسا للجان التعليم والكنائس والمطبعة.

قرار عزل البابا كيرلس الخامس

ومع أن هذا المجلس هو الذي ساعد في تعيين البابا كيرلس الخامس ١٨٢٤- ١٩٢٧ بابا للأقباط في ١٨٧٤ فقد تكرر نشوب الخلاف بين الكنيسة وبين المجلس الملي نتيجة اختلاف وجهات النظر حول كل شيء تقريبا وإن كانت المراجع القبطية تذكر أن الخلاف كان حول أساليب الإصلاح، و قد مارس بطرس بطرس غالي باشا فيما بعد صلاحياته التنفيذية فعزل البابا كيرلس الخامس عن صلاحياته لفترة من الزمن ، وهو أمر غير مشهور بالدرجة التي اشتهر بها عزل الرئيس السادات للبابا شنودة ، و السبب معروف بالطبع .

اختياره للوزارة في عهد الخديو عباس حلمي

طال عهد بطرس بطرس غالي باشا في منصب وكالة وزارة الحقانية، وكان أول عهده بمنصب الوزير حين عين ناظرا للمالية في حكومة حسين فخري باشا (١٥ يناير ١٨٩٣)، ولكن هذه الوزارة أقيلت بعد ثلاثة أيام وقد كان المعتمد البريطاني لورد كرومر يجاهر بأن الخديو عباس

حلمي الثاني لا يملك حق تعيين الوزراء دون استشارته، ولهذا السبب حدثت أزمة وزارية أودت برئيس الوزراء فخري باشا ، فقد كان الخديو عباس حلمي بعد توليه الخديوية بسنة قد حاول أن يزيج مصطفى فهمي باشا ولهذا كلف حسين فخري باشا بتشكيل الوزارة، فأدخل حسين فخري باشا في وزارته وزيرين جديدين هما: بطرس بطرس غالي باشا (للمالية)، وأحمد مظلوم (للحقانية)، لكن كرومر لم يوافق علي هذا التغيير وتوصل كرومر والخديو إلي حل وسط بالتضحية بكل من مصطفى فهمي (مرشح الإنجليز) وفخري (مرشح الخديو) والعودة إلي رئيس وزراء قديم هو رياض باشا . هكذا بدا كما لو أن الخديو قد فشل في تحقيق رغبته في التغيير، لكن هذه الأحداث أسفرت في النهاية عن دخول وزيرين جديدين كان بطرس بطرس غالي باشا أحدهما.

استمراره في وزارة رياض

وقد احتفظ بطرس بطرس غالي باشا بمنصب وزير المالية في الوزارة التي تشكلت علي إثر ذلك برئاسة مصطفى رياض باشا ، والتي استمرت حتي أبريل ١٨٩٤

عمله الأشهر كوزير للخارجية ورياسته للوزارة

عين بطرس بطرس غالي باشا وزيرا للخارجية في وزارة نوبار باشا الثالثة (أبريل ١٨٩٤ - نوفمبر ١٨٩٥)، واحتفظ بطرس بطرس غالي باشا بهذا المنصب أيضا طيلة وزارة مصطفى فهمي باشا الثالثة (١٨٩٥ - ١٩٠٨) ، وبذلك فإنه حقق الرقم القياسي في طول البقاء وزيرا للخارجية ، بهذه الوزارة ، فضلا عن الوزارة السابقة عليها و وزارته هو التالية عليها .

صعوده لرئاسة الوزارة

بعد إقالة مصطفى فهمي عهد إليه برئاسة الوزارة (نوفمبر ١٩٠٨ - فبراير ١٩١٠)، و كان أقوى منافسيه علي هذا المنصب هو سعد زغول باشا لكن المعتمد البريطاني والخديو كانا يفضلانه بما عهد فيهما من حب للدكتاتورية إذ كانا يريانه وهو المطيع المتألم علي طول الخط أنسب لهذا المنصب من سعد زغول باشا بعنفوانه واعتداده بفكره و فهمه . واحتفظ بطرس بطرس غالي باشا في وزارته بنظارة الخارجية مع رياسته للوزارة حتي تم اعتياله . بهذا فإن علاقة بطرس بطرس غالي باشا بالوزارات تتمثل في أنه بدأ بوزارة المالية و انتهى بالخارجية التي طال عهده بها ، أما الحقانية فقد كان وكيلا لها لفترة طويلة كما ذكرنا من قبل ولهذا فإنه تولاها بالنيابة عن وزرائها في فترات غيابهم المحددة .

مكانة وزارته في التاريخ الحديث

تعد وزارة بطرس بطرس غالي باشا الوزارة التاسعة عشرة في تاريخ مصر الحديث، وقد كان بطرس بطرس غالي باشا كما ذكرنا بمثابة ثاني مصري مولود في مصر يتقلد رئاسة الوزارة بعد البارودي باشا علي حين كان كل من سبقوهما من ذوي الأصول الأخرى و ممن ولدوا خارج مصر . وقد أظهر تشكيل الوزارة عنده مصادفة للتوفيق في اختيار الأشخاص، فقد شكل الوزارة

من خمسة بالإضافة إلي شخصه، ولم يكن من الخمسة وزير قديم إلا سعد باشا زغول وزير المعارف، واختار (أو اختير له) أربعة وزراء جدد أصبحوا بعد ذلك دائماً نجوما بارزين في الحياة السياسية المصرية وقد كان منهم اثنان خلفا بطرس بطرس غالي باشا في رئاسة الوزارة علي التوالي، وهما: محمد سعيد باشا ، وحسين رشدي باشا ، (وهما مولودان في ١٨٦٣ ومتوفيان في ١٩٢٨) أما الآخرا فكانا مرشحين لرئاسة الوزارة واعتذرا، وهما: إسماعيل سري باشا ، وأحمد حشمت باشا . وقد بقيت وزارة بطرس بطرس غالي باشا علي ما هي عليه منذ تشكيلها وحتى مصرعه، وقد تولي سعد زغول رئاستها بالنيابة في سبتمبر ١٩٠٩ حين قام بطرس بطرس غالي باشا بإجازة.

علاقته بالخدوي عباس حلمي الثاني

هكذا ظل بطرس بطرس غالي باشا في المنصب الوزاري باستمرار ومن دون انقطاع طيلة ١٧ عاماً، منذ أصبح وزيرا وحتى وفاته . لكننا مع هذا نستطيع القول بأنه لم يحظ رئيس وزراء في العصر الحديث بحب لاحق من رئيس الدولة الذي عمل معه نحو ما حظي بطرس بطرس غالي باشا بحب الخديو عباس حلمي، وربما كان اغتياله هو السبب في هذا ، لكننا نجد الخديو عباس حلمي في مذكراته يذكر بكل وضوح أن بطرس بطرس غالي باشا هو أكفأ رؤساء الوزارة الذين عملوا معه وأكثرهم وطنية وإخلاصاً له (كانوا في تعاقبهم علي عهده سبعة و كان هو خامسهم : مصطفى فهمي، وحسين فخري، ورياض ، ونوبار، و بطرس و محمد سعيد، ورشدي)، ولاشك في أنه بالمعني البيروقراطي الضيق كان أكثرهم إخلاصاً أو طاعة له.

وفيما يبدو فقد حفلت حياة بطرس غالي الوظيفية مع الخديو بكثير من الجوانب الإيجابية جعلت الخديو يبكي عليه كل هذا البكاء وهو لا يزال حياً ومن قبل أن يموت .

اتفاقية السودان بداية مخاصمته الكبرى للمشاعر الوطنية

صادفت تصرفات بطرس بطرس غالي باشا السياسية (التي لا يمكن وصفها إلا بأنها كانت قصيرة النظر) ردود فعل وطنية متصاعدة أدت تراكم مشاعر الكراهية الشعبية ضده، وكان لهذه المشاعر كثير مما يبررها، لكن أول المعالم الكبرى في هذه الكراهية تصاعدت بقوة عندما وقع مع إنجلترا اتفاقية السودان عام ١٨٩٩، وكانت جميع الاتجاهات الوطنية تعتبرها بمثابة تقرير تام في الحقوق المصرية.

رئاسته لمحكمة دنشواي وإعدامه لمواطنيه

ثم جاءت أكثر هذه الأسباب مدعاة لتصعيد مشاعر الكراهية ضد بطرس بطرس غالي باشا حين كان هو ، وليس غيره ، الذي تولي رئاسة المحكمة الخاصة التي شكلت في شبين الكوم (٢٤ يونيو ١٩٠٦) للنظر في قضية دنشواي وهي المحكمة الخاصة او الخصوصية التي قضت بإعدام عدد من الفلاحين شنقا . ومما يجدر ذكره أن رئاسة المحكمة كان مفروضا أن يتولاها ناظر الحقانية آنذاك (إبراهيم فؤاد باشا)، لكنه كان متغيبا في إجازة، وكان بطرس بطرس غالي باشا

وزير الخارجية ينوب عنه في وزارة الحقانية لا باعتباره قاضيا ، إذ لم يكن كذلك وإنما باعتباره قد ظل وكيلا لهذه الوزارة فترة طويلة .

ونحن نلاحظ ما يلاحظه أي قارئ للتاريخ المصري المعاصر من أن بطرس بطرس غالي باشا لم ينل من تقريع الشعب وهجوم مثقفيه علي موقفه في دنشواي عُشر معشار ما ناله الهلباوي باشا الذي تولي وظيفة الادعاء، وقد نُدب لها بحكم القانون، ولا عُشر معشار ما ناله أحمد فتحي زغلول عضو هذه المحكمة وشقيق الزعيم الكبير سعد زغلول، والسبب في هذا أن صورة بطرس بطرس غالي باشا كانت قد ترسخت كشخصية معادية للحركة الوطنية و مشاعر الشعب ولم يكن يلعب في منطقة الوسط . ومع هذا فإن ما أصاب سمعته وصورته و تاريخه من التخوين و التآثيم ليس بالقليل .

وقد أثارت أحكامه في قضية دنشواي ١٩٠٦ ولا تزال تثير الشعور الوطني ضده، واعتبرت هذه المهمة التي أداها بمثابة وصمة عار في تاريخه، وأجبت ما كان يتردد من انتقادات له في المواقف السابقة.

البرلمان يعارضه في مد امتياز قناة السويس

في عهد وزارة بطرس بطرس غالي باشا اتجهت مصر إلي توسيع اختصاصات مجلس شورى القوانين و الجمعية الوطنية فتقرر بهذا اشترك الأمة من خلال نوابها في النظر في مشروعات الحكومة بعرضها علي المجلس علي أن يحضر الوزراء للمناقشة فيها. ومن الجدير بالذكر أن ممارسة الشعب لصورة من صور الحياة النيابية كانت كفيلة بزيادة نصيبه من كراهيته الشعبية وقد حدث هذا حينما حاول بطرس بطرس غالي باشا أن يمرر ما كان قد قرره من تبني الموافقة علي مد اتفاقية امتياز شركة قناة السويس ، وهكذا أسهمت مفاهيمه البيروقراطية القاصرة ، و الخانعة للإنجليز في تعبئة الشعور الوطني ضده.

أول اغتيال سياسي في مصر الحديثة

ازدادت حدة كراهية الشبان والوطنيين لبطرس بطرس غالي باشا فترة بعد أخري إلي درجة دفعت شابا صيدلانيا ينتمي للحزب الوطني و متعلما في الخارج هو إبراهيم ناصف الورداني إلي اغتياله ، وبرر الرأي العام والخاص معا سبب اغتياله له في وضوح بأنه كان بسبب مشاركة بطرس بطرس غالي باشا في الأسباب الثلاثة البارزة ، محاولة مد امتياز قناة السويس وتوقيعه اتفاقية السودان، وأنه كان رئيس المحكمة التي حكمت علي مواطني دنشواي بالإعدام. يذكر التاريخ المكتوب كثيرا من تفصيلات اغتيال بطرس بطرس غالي باشا باعتباره كان أول حادث اغتيال سياسي علي هذا المستوي.

وقد كان بطرس بطرس غالي باشا خارجا من ديوان الخارجية يوم الأحد (٢١ فبراير ١٩١٠) في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ووراءه سكرتيره الخاص أرمولي بك، وبالقرب منهما حسين رشدي باشا الذي كان ناظرا للحقانية وقتئذ، وقد فوجئ بطرس بطرس غالي باشا بخمس

رصاصات أطلقت عليه من مسدس أصابته في الذراع والعنق والكتف والجنب فأغمي عليه وسقط من المركبة.

حاول الدكتور الورداني أن يهرب فأسرع أرمولي والحجاب الواقفون إليه وأمسكوه وأدخلوه إلي الوزارة، وحُمل بطرس بطرس غالي باشا إلي غرفته وأسرعوا إلي استدعاء أطباء مصلحة الصحة ورجال جمعية الإسعاف، وحضر الدكتور الطبيب الشرعي وتبعه عدد كبير من الأطباء وقاموا بإخراج بعض الرصاصات من رئيس الوزراء المصاب .

الخديو عباس يزوره في المستشفى

نقل بطرس بطرس غالي باشا إلي مستشفى الدكتور ملتن في صحبة رشدي باشا ، وأظهر الخديو عباس حزنه الشديد عليه.

وفي الساعة الثالثة وصل الخديو إلي سراي عابدين فاجتمع بوزرائه وعقدوا مجلسا فوق العادة للنظر في أمر هذا الحادث الجنائي الفجائي الخطير.

وقبيل الساعة الرابعة توجه الخديو إلي المستشفى ، حيث دخل إلي غرفة بطرس بطرس غالي باشا فبكي ، وقبله ، وشجعه ، وانصرف عائدا إلي سراي عابدين ، ولم يعد إلي سراي القبة إلا بعد أن أمر أن تبلغ إليه أخبار حالته ساعة بساعة.

لفظ بطرس بطرس غالي باشا أنفاسه الأخيرة في الساعة الثامنة والربع وهو يقول: «الله يعلم أني لم أفعل شيئا بضر ببلادي».

جنازته

قرر الخديو أن يحتفل بتشييع جنازة الفقيد احتفالا رسميا علي نفقة الحكومة، وأن يسير المشهد في منتصف الساعة الحادية عشرة صباح الثلاثاء من مستشفى ملتون إلي الكنيسة المرقسية الكبرى، ومنها إلي دير الأنبا رويس.

وقد تحركت عربة لحمل النعش من الكنيسة إلي المدفن مجللة بالسواد يجرها ثمانية من الجياد ، و ترافقها ١٢ عربة مملوءة بأكاليل الأزهار والرياحين، وقد تقدم من حامي أبسطة الرحمة التي يبلغ عددها الخمسة الأمير محمد علي توفيق بالنيابة عن الخديو.

وبعد صلاة الكنيسة تولى الأنبا لوكاس مطران قنا الحديث عن حياة بطرس بطرس غالي باشا ومآثره على نحو بروتوكولي .

الحزب الوطني ينفي عن كيانه المشاركة في اغتياله

بادرت صحيفة «اللواء» لسان حال الحزب الوطني عقب الحادث بنشر افتتاحية قالت فيها إن الحادث: «ما كان يتوقعه أحد من أصدقاء مصر، إن سفك الدماء في هذا البلد الهادي مما يؤخر رقيه، ونرجو أن يكون الحادث فرديا، كما نرجو من المحكمة ألا تبني قصورا من الأوهام فتظهرنا أمام الرأي العام الأوروبي بمظهر سفاكي الدماء».

قرار النائب العام بإحالة الورداني وثمانية من زملائه إلى قاضي الإحالة

في ١٤ مارس ١٩١٠ أصدر النائب العام عبد الخالق ثروت باشا قرارا بإحالة المتهمين إلى قاضي الإحالة، وقد انحصر الاتهام في إبراهيم الورداني كفاعل أصلي وفي علي مراد المهندس المعماري، ومحمود أنيس مهندس الري، وشفيق منصور المحامي، وعبدالعزیز رفعت مهندس التنظيم، وعبدالخالق عطية المحامي، وحبیب حسن المدرس، ومحمد كمال، وحبیب كمال كشركاء».

قرار قاضي الإحالة يكتفي بإحالة الفاعل وحد للجنايات

في ٢٤ مارس قرر قاضي الإحالة إحالة إبراهيم الورداني وحده إلى محكمة الجنايات وبألا وجه لإقامة الدعوي ضد الباقيين لأن ما نسب إليهم - لو ثبتت صحته - لا يعدو اتفاقا جنائيا لا يرقى إلى مرحلة الاشتراك عن طريق التحريض أو المساعدة. ويذكر تاريخنا القضائي أن قانون العقوبات قد عدل بعد ذلك لكي يتضمن العقاب علي «الاتفاق الجنائي» وذلك بسبب صدور ذلك القرار من قاضي الإحالة في قضية مقتل بطرس غالي بألا وجه لإقامة الدعوي.

وصف دقيق لجلسات محاكمة إبراهيم الورداني المتهم بقتله

في ٢١ من أبريل ١٩١٠ مثل الورداني أمام محكمة جنايات القاهرة وكان يرأسها مستشار أجنبي، ومثل النيابة عبدالخالق ثروت النائب العام نفسه، وتولي الدفاع عن الورداني المحامون أحمد لطفي، وإبراهيم الهلباوي، ومحمود أبو النصر، وإسماعيل شيمي . كانت خطة الدفاع عن الورداني كما ذكر أستاذنا الدكتور محمود كامل في مقالاته وكتبه هي التشكيك في سلامة العملية الجراحية التي أجريت له من الوجهة الطبية، وأنه كان في الإمكان إنقاذه لو لم تجر العملية بالأسلوب الذي أجريت به، وقد اشدد الخلاف حول تلك النقطة الطبية فوجدت المحكمة ألا مناص من ندب لجنة برئاسة الطبيب الشرعي الإنجليزي، وأستاذ الجراحة الإنجليزي بمدرسة الطب، وجراح مصري لتقرر ما إذا كانت الجروح الناشئة عن الإصابة مميتة بدون إجراء العملية ، أو أنه كان يمكن للمصاب أن يعيش بدون إجراء العملية؟ وما إذا كانت العملية قد أجريت مع اتخاذ الاحتياطات الضرورية فنيا؟».

«وقد قررت هذه اللجنة الطبية أن إجراء العملية كان واجبا، لكنهم لا يستطيعون أن يقطعوا بما إذا كانت الاحتياطات الضرورية فنيا قد اتخذت في أثناء إجراء العملية» لجأ الدفاع بعد ذلك إلى الدفع بأن المتهم مختل القوي العقلية، وركز في دفاعه علي نفي سبق الإصرار وأن وصف الجناية الصحيح هو الشروع في قتل، باعتبار أن وفاة المجني عليه لم تكن بسبب ما ارتكبه المتهم بل بسبب الخطأ الطبي في إجراء العملية الجراحية.

ولما بدأ إبراهيم الهلباوي مرافعته وجه إليه رئيس الدائرة هذه الكلمات: «يا هلباوي بك، من واجبي أن أنبهك إلي أنك لو تعرضت في مرافعتك للسياسة فإن المحكمة ستضطر إلي نظر القضية

في جلسة سرية، فأجابه بأنه مضطر بحكم واجبه في الدفاع أن يتعرض للسياسة لأن الجريمة سياسية، ولما وصل في دفاعه إلى موقف المجني عليه من اتفاقية الحكم الثنائي الإنجليزي المصري - السوداني عام ١٨٩٩، أمر رئيس الدائرة بإخلاء القاعة من الجمهور».

الهلباوي يطبع مرافعته ويوزعها من قبل الجلسة

وكانت هيئة المحكمة قد عرفت من قبل الانعقاد ما سوف يتطرق إليه الدفاع، إذ سبق أن طبعت مرافعة الهلباوي قبل إلقائها.

وحدث أنه لما أعيدت علنية الجلسة جمعت المذكرة التي تضمنت مرافعة الدفاع من أفراد الجمهور الحاضرين الذين وزعت عليهم.

وفي ١٨ مايو ١٩١٠ صدر الحكم بإعدام الورداني شنقا.

وفي ١١ من يونيو قضت محكمة النقض برفض الطعن وتأييد الحكم الصادر من محكمة الجنايات وكانت قبل ذلك قد رفضت طلبا من الدفاع برد وكيل المحكمة الإنجليزي عن نظر الطعن بالنقض، علي أساس أنه كان عضوا في المحكمة المخصصة التي فصلت في قضية دنشواي التي رأسها بطرس غالي».

وفي ٢٨ يونيو ١٩١٠ نُفذ حكم الإعدام في إبراهيم الورداني.

و قد لاحظ أستاذنا محمود كامل أن من العجيب أنه أيضا، في مثل هذا الشهر من عام ١٩٠٦ بل في نفس اليوم من نفس الشهر (شهر يونيو) نفذ حكم الإعدام في المتهمين الأربعة الذين قضت المحكمة المخصصة برئاسة بطرس بطرس غالي باشا بإعدامهم في قضية دنشواي، وهي القضية التي ظل شبحها يخيم علي جلسات محاكمة الورداني.

دوره في المجتمع القبطي

كانت لبطرس بطرس غالي باشا إسهامات كثيرة علي ما سمي منذ عهده بالمجتمع القبطي في القاهرة، وإليه يرجع الفضل في تأسيس عدد من المدارس ودور العلاج القبطية، كما أسس بطرس بطرس غالي باشا الجمعية الخيرية القبطية (١٨٨١) .

الجامعة الأهلية افتتحت في عهده

تصادف في عهد وزارته أن افتتحت الجامعة الأهلية، ومن الطريف أن قام بطرس بطرس غالي باشا بتمثيل الخديو عباس حلمي في حفل الافتتاح نظرا لغياب الخديو في الخارج.

ضريحه الخاص في كنيسته الخاصة

بعد عام من وفاة بطرس بطرس غالي باشا نقل جثمانه إلي قبر جديد شيد في الكنيسة البطرسية المعروفة باسمه ، بدير الأنبا رويس بشارع رمسيس، وهي الكنيسة التي لا تزال قائمة حتي الآن في مدخل جانبي بجوار الكاتدرائية الكبرى بالعباسية، التي لم تبن إلا بعد ستين عاما من بناء كنيسة بطرس غالي ، ويروي أن بطرس بطرس غالي باشا قد أنفق علي قبره وعلي الكنيسة ما لا يقل عن العشرين ألفا من الجنيهات.

وقد ألقى أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة معروفة عند نقل رفات الفقيد إلي قبره الفخم الواقع داخل كنيسة الخوصية المعروفة باسمه وقد قال شوقي في قصديته ضمن أبيات كثيرة:

قبر الوزير تحية وسلاما
ومحاسن الأخلاق فيك تغيب
قد كنت صومعة فصرت كنيسة
وقال أمير الشعراء:

العلم والمعروف فيك أقاما
عاما وسوف تغيب الأواما
في ظلها صلي المطيف وصاما
يقضون حقا واجبا وذماما
والأريحي المفضل المقداما
كالأرض تنشد في السماء غماما
وقال أمير الشعراء :

نم ما بدا لك في الكنيسة نافضا
ماذا لقيت من الرياسات العلي
اليوم يغني عنك لوعة بئس
والرأي للتاريخ فيك ففي غد
وعرج شوقي إلي الوحدة الوطنية
اعهدتنا والقبط إلا أمة
نعلي تعاليم المسيح لأجلهم

و وصل أمير الشعراء شوقي إلي أشهر أبياته في هذا الموضوع :

الدين للديان جل جلاله
لو شاء ربك وحد الأقواما
وفي هذه القصيدة أيضا يوجه أمير الشعراء بيته الجميل الشهير للأقباط الذي فيه قوله:
هذي قبوركمو وتلك قبورنا
متجاورين جماجما وعظاما

صورته في أدبيات التاريخ المعاصر

أصبح بطرس بطرس غالي باشا رمزاً لمشاركة الأقباط في الحياة السياسية في مصر الحديثة وأصبح رأس أسرة تولى عدد من أفرادها مناصب الوزارة. فقد تولوا اثنا من أبنائه، واثنا من أحفاده، و واحد من أبناء أحفاده، و على حين كان ابناه و حفيده معتدلين في خطابهما السياسي والتنفيذي فان ابن حفيده الذي صعد للوزارة في ١٩٩٣ كان أداؤه المستفز كفيلا بإعادة مشاعر الكراهية مضاعفة إلي ذكرى جده الأكبر .

والحق أن صورة بطرس بطرس غالي باشا في أدبيات التاريخ المعاصر لا تراوح مكانة الانتقاد القاسي و المستمر ، وذلك علي الرغم من أن شخصيته لا تخلو من مميزات جعلت الدكتور محمد حسين هيكل علي سبيل المثال يخصص له ترجمة مهمة في كتابه «تراجم من الشرق والغرب».

الفصل الحادي عشر : نوبار باشا الترجمان الذي أفلس الخديو إسماعيل و شوّه القائد إبراهيم

نوبار باشا هو النموذج الزاعق للسياسي الذي يُجيد استغلال وظيفته لنفسه فقط ولنفسه فقط ، وليس في المقام الأول فحسب ، وإنما هو يوظف مناصبه كلها لنفسه ، ولا يبذل من نفسه لوظيفته إلا بقدر ما يتربّح منها، وبقدر ما يصعد من خلالها إلى وظيفة أخرى، ليفعل فيها مثل ما فعل في الأولى ، ويظلُّ يُكرّرُ هذا طيلة حياته من دون أن تُعرفَ عنه أية تضحية من أجل موقف مهني أو خلقي ، ومن دون أن يُسجل له أي موقف وطني يرفع من شأن ذكره في التاريخ الموثق أو التاريخ المُتناقل على ألسنة الناس، ومن دون أن يُسهِمَ إسهاماً حقيقياً في تطوير حقيقيّ لقُدّرات الوطن الذي عمل فيه ، وذلك على الرغم من مُمارسته الإشراف على كثير من الأعمال والمشاريع والإنجازات.

جوهر الحقيقة في رئاسته أول وزارة

في الأغلب الأعم من أدبياتنا التاريخية تصور قيمة نوبار باشا علي أنه كان أول رئيس للنظار(الوزراء) في مصر حسب التعريف الرسمي الذي يقتضي أن تشكل نظارة (وزارة) برئيس من بين أعضائها، وكانت قيمته الحقيقية في هذا المنصب تكمن للأسف في أن هذه الوزارة كانت تُسمّى بالوزارة الأوربية بما يدل عليه هذا الاسم من معنيين: الأول أنها شكّلت بناء على رغبة أو طلب أو قرار من أوربا. و الثاني وهو المشكل أنها ضمّت لأول و آخر مرة وزيرين أوربيين بالفعل مُمثلين للبلدين الذين كانا يُسيطران على مقدرات الأمور الاقتصادية وفاء لحقهما في الديون التي أثقل الخديو إسماعيل (١٨٣٠ - ١٨٩٥) بها وطنه وشعبه و نفسه شيئاً فشيئاً طيلة حكمه لمصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩).

وها هو الخديو إسماعيل يصل في العام الأخير من حكمه إلى التسليم التام للدائنين ، فيقبل خاضعا خانعا ، وليس مضطرا فحسب ،أمرا من أوربا بتشكيل وزارة ، ويكون على رأس هذه الوزارة ذلك الرجل الذي لا يصلح في المقام الأول إلا أن يكون أداة للمستعمر ضد الوطن الذي احتضنه وأكرمه ورقّاه وولّاه مسؤوليات كثيرة في مقابل أجور كبيرة منظورة وغير منظورة في عهدٍ كانت الأجور المشروعة والمقننة على الوظائف الحكومية أو العامة عالية جدا بحيث تضمن لمن يتولّاها أن يُصبح من الأثرياء بل من فاحشي الثراء أبد الدهر (هو وورثته) بفضل سنوات قليلة في المناصب العامة.

قيّمته السياسية و التنفيذية

مع هذا فقد كان نوبار باشا سياسيا مترجماً بلا شك ، فالوقائع التاريخية أثبتت هذا مرات عديدة ولم يحم سمعته وهو في الحكم من الاتهام الصريح بالفساد إلا نجاحه الفذ في تكميمه التام للصحافة، وقد بلغ الغاية القصوى في هذه الممارسة حتى إنه أوقف صحيفة محايدة أقرب إلى الاستكانة وهي

صحيفة الأهرام التي لم توقف إلا في عهده (١٨٨٤) مع ما هو معروف عن الأهرام من الحيادية والتحفظ ومهادنة السلطة إلى حد النفاق . والحق أنه كان رائداً تاريخياً و عالمياً (بلا مبالغة) في محاربة الصحافة وتقييد حريتها ، وإليه شخصياً و بطريقة مباشرة (وليس إلى معاونيه) يُنسب إلغاء عدد من الصحف الوطنية المتميزة على مدى سنوات متتابعة.

حب الإثراء من المال العام

كان نوبار باشا من أوائل الذين تمثلت فيهم بوضوح حبهم لخصلة الإثراء من المال العام والوظائف العامة، فكان على سبيل المثال مهموماً على الدوام بالعمل الجاد على زيارة ثروته من الأطيان الزراعية التي كانت بمثابة أبرز ملاذ آمن للثروة في ذلك الوقت ، وقد سجلت الإحصاءات الشفافة التي كانت متاحة على نطاق واسع في ذلك العصر أن ثروته ما بين ١٨٥٢ و ١٨٧٥ قد بلغت أكثر من ألفي فدان.

ومما يذكره التاريخ أن محمد علي كان قد بدأ نظام الاقطاعات فأقطع رجاله ٤٠٠ ألف فدان وكان نصيب نوبار باشا من هذه الأقدنة ٥٠٠ فدان، وقد باع هو نفسه هذه الأرض إلى الوالي عباس باشا ، بجنيهين للفدان، وفيما بعد عقود وبالتحديد في ١٨٩٠ وصل سعر الفدان من هذه الأرض إلى خمسين جنيهاً.

كان نوبار باشا بحكم النشأة و الطبع فرنسي الهوى، ولهذا فإنه لم يكن في البداية على علاقة جيدة بالإنجليز إلا فيما يسمح به الفرنسيون من العلاقات الحسنة مع الإنجليز، لكن الأمر تغير تماماً بعد الاحتلال الإنجليزي فأصبح مخلصاً للإنجليز بدرجة أقتنعهم به ، وكان الإنجليز يصرحون بما يقولون عنه بكل وضوح من إنه أرمني مقيم في مصر ، وإنه لا يربطه شيء بمصر، بينما كان هو وأنصاره (ولا يزالون) يرُدُّون على مثل هذا القول ردوداً ضعيفة من قبيل إن الفلاحين أنفسهم كانوا يقولون إن حكمه أفضل من حكم الإنجليز، وإذا كان هذا هو أقصى دفاع عن نوبار باشا ، فإنك تستطيع أن تصور درجات الاسوداد في الصورة الانطباعية التي تركها عن نفسه.

أهمية نوبار باشا كرئيس للنظار أو للوزراء

لعل الأمر الذي يُصوّر أهمية نوبار باشا كرئيس للنظار أو للوزراء هو أنه هو الوحيد تولى هذا المنصب ثلاث مرات في ثلاثة عهود مُتتالية فكان رئيساً للوزراء في عهد الخديو الأب إسماعيل (١٨٧٨ - ١٧٧٩) لأقل من ستة شهور (٢٨ أغسطس ١٨٧٨ - ٢٣ فبراير ١٨٧٩) ، وكان وهذا هو الأهم رئيساً للوزراء في فترة الذروة من تثبيت الاحتلال البريطاني لأقدامه في مصر عقب فشل ثورة عرابي أي في عهد الخديو الابن توفيق (١٠ يناير ١٨٨٤ - ٩ يونيو ١٨٨٨) ثم كان رئيساً للوزراء مرة ثالثة في السنة الثالثة من عهد الخديو الحفيد عباس حلمي (١٥ ابريل ١٨٩٤ - ١٢ نوفمبر ١٩٩٥).

في هذه الوزارات الثلاث كان نوبار باشا فيما بدا لكل المراقبين ، وللمنصفين من المؤرخين من بعدهم ، موظفاً تقليدياً متحفظاً معنياً برغبات الأوربيين في المقام الأول وبرغبات الحاكم في

المقام الثاني ، وتصادف أن كان لقب الحاكم في المرات الثلاث هو الخديو ، وهو اللقب الذي حازه بصفة رسمية ثلاثة من حكام مصر الأب والابن والحفيد، وكان نوبار باشا كما قلنا هو الوحيد الذي قُدر له أن يعمل رئيساً للوزراء مع الخديويين الثلاثة.

مقارنته بأنداده المعاصرين له

ربما يسهل أمر تقييم نوبار باشا من حيث أنه لم يكن فلتة زمانه ولا عبقرياً متفرداً ، إذا ما ألقينا نظرة سريعة على شخصيات معاصريه ومجايليه من كبار الموظفين أو كبار الساسة الرسميين في ذلك العهد، تولى ثلاثة منهم رئاسة الوزارة.

مقارنته بشريف باشا

لا وجه لمقارنة نوبار باشا بالشخصية الوطنية التي يمثلها محمد شريف باشا (١٨٢٦ - ١٨٨٧) المعروف بأنه أبو الدستور ، والذي هو في مجمل حياته رجل وطني بل مُفرط في الوطنية إذا ما قورن بنوبار باشا ، كما أنه أكثر منه ثقافة، ومهنية ، كما أن حياته حافلة بالمواقف المشرقة المنتصرة لكرامة الشخصية والوطنية وللحق ، وقد رأس شريف باشا الوزارة أربع مرات:

- الأولى : ٧ ابريل ١٨٧٩ - ٥ يوليو ١٨٧٩
- الثانية : لأربع وأربعين يوماً من ٥ يوليو ١٨٧٩ وحتى ١٨ أغسطس ١٨٧٩
- الثالثة : من ١٤ سبتمبر ١٨٨١ - ٤ فبراير ١٨٨٢
- الرابعة : من ٢١ أغسطس ١٨٨٢ وحتى فبراير ١٨٨٤ .

فصلنا هذا لنذكر بأن نوبار باشا كان هو الذي خلف شريف باشا في وزارته الرابعة ليُنفذ للبريطانيين ما رفض شريف باشا أن يُنفذه لهم ، على حين أثار شريف باشا اعتزال السياسة والمناصب العامة أما نوبار باشا فقد استمر في السياسة بعد ذلك ١٠ سنوات ولم يتركها إلا قبيل وفاته. ونحن نلاحظ أن وزارات شريف باشا الأربعة كانت جميعاً ما بين وزارتي نوبار الأولى والثانية .

مقارنته برياض باشا

لا وجه أيضاً لمقارنة نوبار باشا بمصطفى رياض باشا الذي هو على وجه العموم (رغم أنه أصغر من نوبار بعقد كامل) أكفأ من نوبار باشا في الإدارة وأكثر اشتباكاً بالحياة العامة، وصاحب رأي حتى إن لم يكن رأيه سديداً، كما أنه كان صاحب همة في الإصلاحات الوطنية والإدارية، ويكفيها أنه كان هو الذي مكن لكثير من ضروب الإصلاح والتطوير في التعليم والخدمات على وجه العموم وللشيخ محمد عبده و أقرانه من الوطنيين الطموحين.

مقارنته براغب باشا

من الصعب ان يقارن نوبار باشا بإسماعيل راغب باشا (١٨١٩-١٨٨٥) الذي كان بالمعايير العلمية أول محاسب يصل لرياسة الوزارة ، كما أنه كان أول رئيس للبرلمان المصري، صحيح أن راغب باشا لم يصل إلى رياسة الوزارة إلا بعد ثلاث سنوات من وصول نوبار إليها ، لكنه

في الأمور المالية والمحاسبية كان أكفأ من نوبار ، وأكثر مهنية والتزاما بالقواعد المحاسبية والمالية كما أنه كان أكثر وطنية و حبا للحياة الدستورية ، على الرغم من خروجه في النهاية على عرابي ، لكنه على وجه العموم لم يكن يتمتع بما كان نوبار باشا يتمتع به من ترقية ورعاية الأوربيين .

مقارنته بعلي مبارك باشا

أما المقارنة الكاشفة لمدى الظلم الذي حاق بمصر والمصريين فهي مقارنة نوبار باشا بعلي مبارك باشا (١٨٢٣ - ١٨٩٣) وهو نموذج للتقراطي المتميز الحقيقي فضلا عن أنه صاحب رؤية ، فهو المهندس ورجل الإصلاح والعمران والمعارف ، ولهذا فإنه كما نعرف من تاريخنا في ظل الأوتوقراطية كان أكبر من أن يصل كالأربعة الآخرين (نوبار باشا وشريف باشا ورياض باشا وراغب باشا) إلى رئاسة الوزارة ولا إلى تكرار هذا الوصول ، وإنما كان على الدوام وزيراً للوزارات الهندسية والتعليمية والفنية ، وكان بما أنجز زعيماً حقيقياً من زعماء الإصلاح الحضاري والتعليمي .

ومن الطريف أن على مبارك باشا كان على خلاف الأربعة الذين نتحدث عنهم (نوبار و شريف ورياض و راغب) كان مصرياً قحاً و فلاحاً معروفاً بالأصل والنسب ، ولم يكن مولوداً في خارج مصر ، وإنما كان مولوداً في قرية من قرى إقليم الدقهلية هي قرية برينبال الجديدة . تجدر الإشارة هنا إلى أن رؤساء الوزارة التاليين مصطفى فهمي (١٨٤٠ - ١٩١٤) وحسين فخري (١٨٤٣ - ١٩٢٠) وبطرس غالي (١٨٤٣ - ١٩١٠) كانوا من جيل آخر تال لهذا الجيل ، وفيما بين هذين الجيلين ولد الشاعر الفنان الأديب المفكر الذي سبق الثلاثة الأواخر إلى المناصب العليا كما أنه كان أكثر رؤساء الوزارة في ذلك العهد ثقافة و جندياً وموهبة ومهارة وحماسة وكرامة وهو الشاعر العبقري الفذ محمود سامي البارودي (١٨٣٩ - ١٩٠٤) والذي كان قائداً لأحمد عرابي (١٨٤١ - ١٩١١) .

كان بمثابة اختيار غربي لمصر

هكذا يستبين لنا بكل بوضوح أن نوبار باشا لم يكن المتعلم الوحيد ولا المؤهل الوحيد ولا الإداري الوحيد في عصره .

لكن نوبار باشا كان يتميز عن معاصريه جميعاً بصلته العميقة و الخفية بأصحاب النفوذ الأوربي الذين كانوا يسعون بحكم نفوذهم الخارجي و قدرتهم على تجريف ثروة مصر من خلال التمويل بالإقراض إلى وضع من يثقون بهم في المواقع التي تعود عليهم وعلى دولهم بالنفع لا أن تعود بالفائدة على مصر أو شعب مصر أو خطط تنمية مصر .

لم يكن عميلاً ولا عديم الوطنية

لا يعني كل هذا النقد الذي وجهناه لنوبار باشا أن نوبار باشا كان عميلاً ، أو عديم الوطنية، كما أنه لا يعني أن نوبار باشا كان يخلو من كفاءة أو أنه كان سيء التصرف على طول الخط، لكنه بكل تأكيد (وباختصار شديد) لم يكن صافي الوطنية لا منبغاً ولا عطاء ، وقد كان شأنه شأن

أبناء جيله ملتزما عاملا غير ميال للفوضى ولا للادعاء ولا للفسه ، و لا للتهريج ، وهو بكل تأكيد لم يهبط إلى الدرك الذي هبط إليه الدكتور يوسف بطرس غالي وأمثاله في بداية القرن الحادي والعشرين.

وأخيرا فإنه إذا جاز أن ترسم مقياس طيف للون رؤساء الوزارة في التبعية للاحتلال فإن نوبار باشا يأتي إلى أقصى اليسار من حيث الكفاءة تبعا لهذا المطياف متفوقاً بهذه التبعية والاستخدام على كل رؤساء الوزراء في جيله بلا استثناء .

نشأته وتعليمه

في تاريخ نوبار باشا المكتوب أخطاء واختلافات يعود بعضها إلى اختلاف اللغات أو عدم التحقق من الأسماء ، فمن الطريف على سبيل المثال أن مدينة أزمير التركية لها اسم في اليونانية هو سيمرنا، وهكذا نجد من باب الطرافة المعهودة في أدبياتنا من يكتب إنه ولد في سيمرنا ثم انتقل إلى أزمير ، وتجد من يحلُّ المشكل بأن يقول في سيمرنا القريبة من أزمير ، أو التابعة لها.. والحقيقة أبسط من هذا كله وهي أن أزمير بالتركية هي نفسها سيمرنا باليونانية، مثل القاهرة وكايرو، أو مثل لندن ولوندره ، والنمسا وأستريا.. الخ.

الخطأ الثاني يتعلق بعلاقته براعيه الأول باغوص يوسفیان فبعض المصادر تذكر أنه عمه، لكن المصادر الأخرى الأكثر ثقة تذكر أنه خاله، والسبب بسيط ومعروف وهو أن اللفظ الإنجليزي Uncle مشترك بين العم والخال وهنا أذكر طرفة جميلة وهي أن أبناء إحدى عائلات الطبقة المتوسطة كانوا يُنادون عمهم بأنه عمهم ويُنادون خالهم على أنه أونكل، وهكذا كان التفريق سهلاً على تلك العائلة.

كان راعي نوبار باشا الذي يعد بمثابة خاله وهو بوغوص بك يوسفیان (١٧٧٥ - ١٨٤٤) أول مسيحي يحصل على رتبة البكوية في مصر ، وقد ولد في أزمير وعمل في حكومات الدولة العثمانية في الجمارك والدبلوماسية ثم استأثر به محمد علي باشا والى مصر ، وأصبح مع مضي الزمن بمثابة الوزير المسئول عن تجارة مصر الخارجية في عهد محمد علي.

وعلى كل الأحوال فليكن الأمر فيما نسجله من تاريخ نشأته متسقا مع ما هو متواتر من أن نوبار باشا ولد في أزمير في مطلع عام ١٨٢٥ وإن كنت أشك في أن يكون هذا التاريخ صحيحاً تماما وإن كان جائزا تقريبا ، ويأتي شكّي لأكثر من سبب، منها أنه في كثير من الروايات المنقولة عنه يقول إنه زامل نابليون الثالث في دراسة من الدراسات المبكرة، في مدينة جنيف السويسرية، ونابليون الثالث مولود في ١٨٠٨ ، ومن هذه الأسباب أنه أصبح موظفاً مصرياً في باريس ١٨٤٢ ومن الصعب تصور أن تختار مصر في ذلك الوقت موظفاً لم يتعد ١٧ عاماً (مهتما كان أبوه وخاله) ليكون مسئولاً عن شأن من شئونها مع الأجانب مهتما كانت كفايته ونبوغه.

على كل الأحوال فقد ارتبط وجود نوبار باشا بباريس (إلى حد ظاهري وليس حقيقياً) بورثة والده في مهمته التي كان محمد علي قد أوفده من أجلها فقد كان أبوه مجرد ديتش نوباريان بمثابة

متحدث باسم محمد علي في الأناضول يتولى تبرير حملة إبراهيم باشا على سوريا (١٨٣١ - ١٨٣٣) وبحلول ١٨٣٩ انتقل ليؤدي هذه الوظيفة في باريس وفيها توفي قبل أن يُجيب طلب الحكومة المصرية بعودته إلى مصر .

وكان نوبار باشا قد بدأ دراسته الأولية في جنيف السويسرية، وكانت كما نعرف وكما لا تزال فرنسية الثقافة والتعليم، أما دراسته الفرنسية التي توازي الابتدائية المصرية القديمة (ولا تزيد عنها بأي حال من الأحوال) فقد أتمها مابين ١٨٣٦ و ١٨٤٠ في سويسرا بالقرب من مدينة تولوز الفرنسية .

إسهام العائلة التي أصهر لها في صعوده

كانت هذه القرابة ببوغوص يوسفيان كقيلة ببداية قوية لنوبار باشا لكنها لم تكن تكفل له بالطبع كل هذا الصعود الذي حققه ، وهنا ننبه إلى أن خطوة مهمة وخطوة أخطر ساعدت نوبار باشا على إنجاز صعوده السياسي كانت هي زواجه من السيدة فوليك ابنة عائلة إيراميان التركية الأرمنية التي كانت تعيش في إستانبول، وكان لهذه العائلة شأن في عاصمة الخلافة ، ومن خلال حميه ، وعائلته ، تمكن نوبار باشا من كثير من النجاحات التي كان مطلوباً من أن يُحققها للخديو إسماعيل في دهاليز الباب العالي.

الفرق بين ثلاث شخصيات : بوغوص ونوبار وبوغوص نوبار

وفد نوبار باشا إلى القاهرة مدعوماً كما أشرنا بمركز من كان بمثابة خال له و هو بوغوص بك يوسفيان، الذي كان قد وصل إلى أعلى بكثير مما وصل إليه والده، فقد كان كما ذكرنا بمثابة وزير للتجارة أو وزير للتجارة الخارجية في حكومة محمد علي، ومن الطبيعي أن نوبار باشا ، فيما بعد و حين رزق ذرية ، سمى ابنه باسم قريبه هذا أو خاله، أي بوغوص ، لكن الطريف في الأمر أن هذه التسمية جعلت بعض المؤرخين يُخطئون في التمييز بين نوبار باشا نفسه وبوغوص نوبار باشا الذي هو ابنه ، وجعلت بعضاً آخر يخلط بين نوبار وخاله .

التمييز بينه وبين ابنه

و نبدأ بالتمييز على أن كثيراً من المصادر المُتاحة الآن تتحدث عن نوبار باشا نفسه باسم بوغوص نوبار باشا ، وبعضها باسم نوبار نوباريان و يعتبر بعضهم أن نوبار باشا هو نوبار باشا الصغير وأن بوغوص هو نوبار باشا الكبير بينما أتى الخلط كما ذكرنا من أن بوغوص اسم يُطلق على اثنين : الأول هو من كان بمثابة خال نوبار باشا وهو بوغوص بك يوسفيان (١٧٧٥ - ١٨٤٤) والثاني هو ابن نوبار باشا ، و يحتل الخال موقعا تاريخيا سابقا على نوبار ، و كأنه نوبار باشا الأكبر رغم أن لقبه يوسفيان وليس نوبار .

وهكذا فإن بوغوص نوبار باشا (١٨٥١ - ١٩٣٠) هو ابن نوبار باشا و ليس نوبار باشا نفسه ، وهو رجل أعمال وسياسي أرمني مصري كان رئيساً للجمعية الوطنية الأرمنية التي أسسها في ١٩٠٦ وهو الذي قاد بتكليف من البابا الكاثوليكي الأرمني جورج الخامس ما سُمي بحركة

الاستقلال الإداري للأرمن عن الدولة العثمانية وهي الحركة التي بدأت عام ١٩١٢ في ظل حكم الانقلاب العسكري للدولة العثمانية، ووصل به الحال إلى مطالبة مؤتمر السلام في باريس بأن يمثل الأرمن فيه.

ابنه تولى زعامة الأرمن وهو مصري الجنسية حتى موته

ظلّ الابن بوغوص نوبار باشا يعيش في باريس منذ العام الذي اندلعت فيه الحرب العالمية (١٩١٤) وحتى توفي ١٩٣٠ ، على الرغم من احتفاظه بالجنسية المصرية ، وبعض المواقع الاقتصادية في شركات مصرية، وكان بهذا نموذجا للمصريين الذين عاشوا وماتوا في باريس، وقد دفن بوغوص نوبار باشا في مقبرة بير لا شيز الشهيرة في باريس ، ومن الجدير بالذكر أن نوبار باشا نفسه توفي هو الآخر في باريس، لكنه دفن في الإسكندرية .

لماذا تخطن المدرسة الأرمينية في القاهرة فيهما ؟

لا يعجبني أحد من إفاضتي في شرح هذا الخلط الشائع في أدبياتنا المتاحة فقد وصل الخلط إلى حد أن المدرسة الأرمينية في القاهرة تضع تمثالاً لنوبار باشا لكنها تكتب عليه أنه لبوغوص نوبار باشا .

تدرجه في الوظائف والنفوذ

ها هو نوبار باشا في ١٨٤٤ في عام وفاة خاله بوغوص وبعد وفاة والده بحوالي أربع سنوات يُصبح من مترجمي محمد علي باشا (فيعين في بداية سلم الوظائف ترجمانا ثانياً) و يترقى إلى رتبة القائم مقام في ١٨٤٦ .

ثم ينتقل نوبار باشا من معية الباشا الكبير ليكون بمثابة المترجم لابنه إبراهيم باشا في ١٨٤٧ وينال رتبة الأمير لاي في ١٨٤٩ ، وفي هذه الفترة المبكرة تحقق لنوبار باشا من صحبة إبراهيم باشا وملازمته ما كان يؤهله ليروي لمعاصريه في أحاديثه المباشرة (ثم في مذكراته التي لم تنشر إلا فيما بعد سنوات) كل ما أثر في الروايات الأوروبية وشكلها وغذاها عن العلاقة المضطربة بين إبراهيم باشا ومحمد علي باشا ولهذا فإننا لا نبالغ في أنه أكثر من شوه صورة إبراهيم أو نشرها مشوهة.

مكانته في عهد عباس الأول

في ١٨٥٠ (أي بعد وفاة محمد علي باشا ومن قبله إبراهيم باشا) وفي مطلع عهد عباس الأول نال نوبار باشا الترقية إلى باشرتجمان ويكلف في ذلك العام بمهمة في إنجلترا تتعلّق بما يذكر من الخلافات بين ورثة العرش ، وينال نوبار البكوية في ذلك الوقت ، وظل نوبار باشا يعمل مترجماً لعباس باشا في ١٨٥١ و١٨٥٢ حيث استقال أو أُقيل .

ثم يعود نوبار باشا للخدمة مرة أخرى ولكن في ديوان التجارة، ويقوم بمهمة خارجية بالنيابة عن الوالي عباس في فيينا.

مكانته في عهد محمد سعيد باشا

يأتي عهد ولي الامر الجديد وهو الوالي محمد سعيد باشا في ١٨٥٤ فيُصبح نوبار باشا سكرتيراً له، ويتولى تنظيم الحركة التجارية بين القاهرة والسويس ويتقاعد في ١٨٥٥ (أي وهو في الثلاثين من عمره حسب تاريخ ميلاده الذي لا أصدقه تماماً).

بعد عام أي في ١٨٥٦ يعود نوبار باشا إلى الحصول على رضا الوالي محمد سعيد باشا، ويلحقه بالعمل في المعية ثم مجلس القومسيون ثم ينال أعظم منصب ناله حتى ذلك الحين مديراً للسكة الحديد من ١٨٥٧ - ١٨٥٩. ومن الطريف أن أول إنجاز مصري كبير شارك نوبار باشا في إدارته هو سكة حديد السويس

وفي ١٨٦١ يعود للعمل مترجماً لسعيد باشا بالرتبة الثانية المتميزة، ثم ينال رتبة فريق (وهو في السادسة والثلاثين من عمره حسب ذلك التاريخ الذي ابدت عدم اقتناعي به) لكنه يفصل مرة أخرى من وظيفته ليكون هذا الفصل أو إنهاء الخدمة الثالث (على الأقل) في تاريخ حياته الوظيفية.

مكانته في عهد الخديو إسماعيل

لما بدأ عهد الخديو إسماعيل عمل نوبار باشا مترجماً لولي الأمر، ثم فصل، ثم عاد ليكون ناظراً للأشغال عقب تأسيس ديوان الأشغال في ١٨٦٤ (بعد سنة من حكم إسماعيل باشا) وأُسندت إليه إدارة السكة الحديد، وبقي مديراً لها حتى يناير ١٨٦٦ حيث أصبح في يناير ناظراً (وزيراً) للخارجية وبقي في هذه المهمة ٨ سنوات من ١٨٦٦ حتى ١٨٧٤ ثم تولى نظارة المالية والتجارة عند تأسيسها ثم عاد ليكون ناظراً للخارجية حتى يناير ١٨٧٦.

فصله من الخدمة و خروجه من مصر

في يناير ١٨٧٦ أي بعد ثلاثة عشر عاماً من حكم الخديو إسماعيل فصل نوبار باشا من الخدمة وغادر مصر بصورة أقرب ما تكون إلى الطرد.

ترشيحه حاكماً لبلغاريا

في تلك الفترة مكنته صلاته الخارجية من أن ينال ترشيحاً أوربياً ليكون حاكماً لبلغاريا في ١٨٧٧، لكن الحرب الروسية العثمانية سرعان ما اندلعت في أبريل ١٨٧٧ فلم يعد هناك محل لهذا الترشيح.

ويدلنا هذا الترشيح على طبيعة النظرة الأوربية الصريحة إلى نوبار باشا كموظف كبير منجز ومطيع و مأمون الجانب فحسب.

رئاسته الأولى للوزارة الأولى

في ١٨٧٨ عاد نوبار باشا إلى مصر ليتولى (بتكليف من الأوربيين في الأساس) رئاسة الوزارة، وقد احتفظ لنفسه بوزارة الخارجية في الوزارة التي كان اثنان من أعضائها الستة من الأوربيين (!) وهو ما يعني أن وجود نوبار باشا نفسه هو وزارته كان استيفاء لشكل لا معنى وطنياً له، ولهذا فإن عهد هذه الوزارة لم يزد عن ستة شهور، وانتهى دوره في هذه المرحلة عند هذا الحد،

بعد أن تأسس في مصر شبه هيكل وزارى يمكن للغرب التعامل معه بما يمهد لفرض السيطرة أو لوجود الاحتلال ، وقد كان من أعضاء وزارته الأولى وطنيان كان لهما شأن بعد ذلك هما رياض باشا وعلى باشا مبارك، فضلاً عن راتب باشا الذي لم يكن له دور كبير في تاريخ مصر .

دوره المشين في تثبيت الاحتلال وإخلاء السودان

بعد أن تمَّ الاحتلال البريطاني لمصر وفشل البريطانيون في التعامل مع شريف باشا تم استدعاء نوبار باشا من المخزن السياسي ، أو الدولاب القديم ، و كلف بتشكيل وزارته الثانية التي هي حتى ذلك التاريخ أطول الوزارات عمراً كما أنها أسوأ وزارات مصر أداء فيما يتعلق بالسيادة الوطنية و القرار الوطني وسيطرة مصر على حدودها ومواردها.

و على نحو ما يسجل التاريخ بأن كل من كانوا قبل الرئيس جمال عبد الناصر قد رفضوا الموافقة على استقلال السودان وفصله عن مصر إلى أن جاء عبد الناصر فسلم للأمرىكين والأوربيين بهذه الرغبة، فذلك يقول التاريخ بأن نوبار باشا هو الذي كان قد أخلى السودان من القوات المصرية بعدما رفض سلفه شريف باشا هذا الطلب بل واستقال حتى لا يُجيب طلب البريطانيين.

وزارته الثالثة

ومن العجيب أنه بعد نهاية عهد هذه الوزارة بست سنوات لم يجد المعتمد البريطاني كرومر بدأً من أن يُشير بتوليّه نوبار باشا رئاسة الوزارة في عهد الخديو عباس حلمي الثاني (حلا لعدم توافقهما) فتولاها للمرة الثالثة والأخيرة في ابريل ١٨٩٤ وذلك من أجل استكمال تكريس الوجود البريطاني في مصر.

ومن طريف أمر وزارته الثالثة التي اقتصر أعضاؤها بمن فيهم الرئيس على ستة أنها ضمت ثلاثة من رؤساء الوزراء من الجيل الجديد : سابقان هما مصطفى فهمي وحسين فخري ، ولاحق هو بطرس غالي كما ضمت رئيس الجمعية التشريعية ورئيس مجلس النواب فيما بعد أحمد مظلوم باشا ، وبالإضافة إلى هؤلاء إبراهيم فؤاد باشا .

مما يذكره التاريخ لنوبار باشا من نشاط انه كان صاحب الفضل في تطوير نوع من القطن طويل التيلة يُنسب إليه وهو القطن النوباري. ومما يذكره محبو نوبار باشا له بقدر كبير من التضخيم دوره في المساعدة على تحرير العمال المصريين من عقود السخرة الذي كان الوالى سعيد قد وافق عليها في حفر القناة ، وبهذا أصبح من حق هؤلاء أن يتقاضوا أجراً ، بينما كان الأمر يعالج على أنه نوع من التجنيد الإجبارى بلا مقابل وهو الامر الذي عادت مصر فعرفت شبيها به على يد أبنائها بعد ٢٣ يوليو .

تدميره للقضاء الوطني

كان نوبار باشا هو الذي مكّن الأوربيين من إنشاء المحاكم المختلطة في ١٨٧٦ (حلت محل المحاكم القنصلية التي كان له هو نفسه أيضاً شأن في تقوية مركزها) وتمثل هذه المحاكم نمطا

من الاحتلال القضائي لا يقلُّ عن الاحتلال العسكري تدميراً لروح الوطن والوطنية، وكما نعرف فقد كان للنحاس باشا والوفد وقادة الحركة الوطنية الخلاص من هذه السبة بمعاهدة ١٩٣٦ وما أعقبها من الغاء الامتيازات الأجنبية في ١٩٣٧ .

ومما يُثير الأسى في تطورات التاريخ المصري المعاصر أن نقرأ الآن عبارات من قبيل أنه كان لنوبار باشا فضل في تطوير القضاء المصري بإنشاء المحاكم المختلطة !! بينما يُمثل هذا (الفضل) أكبر إساءة إلى الوطنية والقضاء الوطني.

ومع هذا فإن بعض الساسة ممن يحاولون الدفاع عن نوبار في هذه الجزئية من قبيل مريت بك غالي يقولون إن هذا كان حلاً أفضل من الاضطرار إلى اللجوء إلى القضاء الأوربي بحكم سطوة الأوربيين في ذلك الوقت .

بقية إنجازاته السلبية

نأتى إلى الإنجازات [السلبية] التي تمكّن بها نوبار باشا من أن يُرسي قدمه ، وأن يستعيد بها وضعه مرة أخرى في عهد الخديو إسماعيل حتى ما قبل عزله المهين :

- أول هذه النجاحات السلبية هو نجاحه في تغيير الدولة العثمانية لقاعدة وراثته العرش في مصر عبر فرمانات ١٨٦٦ و ١٨٦٧ و ١٨٧٣ والتي أقرت في النهاية بمبدأ أن تكون ولاية مصر في نسل إسماعيل لا غيره من أفراد الأسرة العلوية.
- حصل نوبار باشا من العثمانيين على حق الخديو في عقد المعاهدات وبخاصة معاهدات القروض وكان هذا النجاح بمثابة إنجاز سلبي ذلك أنه أسهم في تسهيل اندفاع إسماعيل الى القروض ومن ثمّ فقدان مصر لاستقلالها على نحو ما نعرف .
- كان نوبار باشا من أسوأ وزراء الداخلية مُعالجة لقضايا الأمن، فكان بتعبير عصرنا يُعول على الإجراءات الأمنية والتسفيّة واستعراض القوة في المقام الأول ، دون توجيه أيّ عناية للعوامل الاجتماعية والقانونية الكفيلة بحفظ الأمن.
- أتيج لنوبار باشا أن يُمثل مصر و يضيع حقوقها في كثير من المفاوضات مع الأوربيين، كما أتيج له أن يكون ممثلاً لمصر في مؤتمر النقود في باريس ١٨٦٧ .
- كان نوبار باشا هو الذي يُفاوض في القروض، وكانت نتيجة مفاوضاته وبالأعلى مصر.
- استحلّ نوبار باشا لنفسه الحصول على عمولات من القروض التي كان يعقد اتفاقياتها ، وهكذا فإنه زاد في حجم الخراب وضياع أموال المصريين بالقروض والعمولات.
- و ليس هذا الذي نلخصه من باب الافتراء ففي عصره و رغم نفوذه تفاقم الحديث عن تجاوزاته حتى وجدت الحكومة نفسها مضطرة إلى استبعاده من المفاوضات بين مصر وبريطانيا حول بيع أسهم قناة السويس.

نزعتة الطائفية وتعصبه المقيت للأرمن

لا شك في أن نوبار باشا كان عنصرياً تماماً ، وكان محابياً للأرمن إلى أقصى حد على حساب المصريين بل على حساب مصر نفسها ، وقد وجد أستاذنا جورجي زيدان ألفاظاً ناعمة لوصف هذا الخلق السيء في شخصية نوبار باشا فقال ضمن حديثه عنه في كتابه "تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر" : "كان غيوراً على مصلحة أبناء جلدته فنال الأرمن في أيام وزارته مساعدات كثيرة بذل لهم فيها المال الكثير" .

علاقته بالولاية السبعة الذين عمل في عهدهم

كان نوبار باشا يُجيد النفاق الذي يتطلبه العمل مع الحكام الأوتوقراطيون ، وهو يذكر بنفسه عن جهوده في هذا المجال كثيراً من الأمثلة في مذكراته، وعلى سبيل المثال فإنه كان في أثناء عودته مع إبراهيم باشا من الأستانة في ١٨٤٨ يُعالج ما يعترى إبراهيم باشا من الهياج النفسي بسبب خوفه من والده محمد علي باشا إذا ما شُفيَ وعلم أن ابنه إبراهيم حصل على فرمان الولاية من السلطان العثماني وعاد به، وكان نوبار باشا يجلس بالساعات الطوال لتهدئة نفسية إبراهيم باشا وإقناعه أن المرض العقلي في العادة (وهو ما أصاب محمد علي باشا) لا يتم الشفاء منه، وبذلك كانت مخاوف إبراهيم باشا تتلاشى.

مع هذا ، تتعدد الأسباب التي أدت إلى فصل نوبار باشا مرات عديدة من وظائفه ، ومنها على سبيل المثال أنه تأخر في توريد بندقيتين طلبهما الوالي ذات مرة ، ومنها أنه ذاع عنه في الأوساط الأوروبية إساءته البالغة في استخدام سلطته لمصلحة شخصيه.

كان نوبار باشا بحكم السن يُقدّر محمد علي باشا إلى درجة الرعب من التفكير في مخالفة توجهاته مهما كان الأمر بمخالفة هذه التوجهات في نهاية عهده أي حتى لو كان الأمر هو إبراهيم باشا ، لكنه بالطبع كان قريباً من إبراهيم باشا ، وقد كان سر قربه منه أنه صحبه في رحلته الأوروبية الشهيرة في ١٨٤٥ والتي شملت زيارته للمصانع والمعاهد العلمية .

أكرر هنا رأيي القائل بأن روايات نوبار باشا التي شاعت منسوبة إليه منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت هي المصدر الأول للصورة السيئة لإبراهيم باشا وتعلقه (هو و والده) بالعرافين و نصائهم ، واضطراباتة النفسية ، ومرضه ، وتعاطيه الخمر ، وعدم سيطرته على نفسه بعد تناول الخمر.

مذكرات نوبار باشا

مما تجدر الإشارة إليه أن مذكرات نوبار باشا تتوقف عند المرحلة الأولى من حياته أي عند سنة ١٨٧٩ حين عزله الخديو إسماعيل باشا من رئاسة الوزارة ولا تتضمن أية ذكريات تخصُّ الفترات التالية التي تولّى فيها رئاسة الوزارة من ١٨٨٤ وحتى ١٨٨٨ ، ومن ١٨٩٤ وحتى ١٨٩٥ . وقد ضمت واحداً وأربعين فصلاً ، خصص ستة فصول لعهد والي مصر محمد علي، وابنه

إبراهيم، وأربعة لعهد عباس الأول ، وستة لعهد محمد سعيد باشا ، بينما خص الخديوي إسماعيل بخمسة وعشرين فصلاً.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المذكرات نُشرت بالفرنسية ١٩٨٣ ، عن مكتبة لبنان في بيروت ، ولم تترجم للعربية إلا بعد ٨ سنوات من نشرها بالفرنسية، وقد كان أستاذنا الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى بذكائه و عبقريته و دأبه أول من علق عليها ، وقد نشر الأستاذ نبيل زكي مقتطفات منها في كتاب بعنوان : نوبار في مصر في كتاب صدر عن مؤسسة أخبار اليوم ثم نشرتها دار الشروق بتحقيق الدكتورة إلهام ذهني وتعليق الدكتورة لطيفة سالم . وقد حظيت مذكرات نوبار باشا التي نشرت في طبعة دار الشروق بتعليقات الوزير والمفكر القبطي مريت غالي الذي بذل كل جهده في محاولة لتجميل وجه نوبار باشا بصعوبة بالغة .

ولا تزال هذه المذكرات تلقى إعراض الباحثين عنها على الرغم من حفاوتها بكثير من الأكاذيب واحتوائها على كثير من الاعترافات الصريحة بخيانة مصر جزئياً أو كلياً على يد نوبار باشا وأمثاله ممن لم يحفظوا حق الوطن المصري الذي أوامهم ، بل إن هذا الوطن جعل من نوبار باشا على حد وصف جورجى " صاحب ثروة طائلة ، ويُعدُّ من أغنى سكان وادي النيل".

وقد ذكر نوبار باشا في هذه المذكرات أنه كتبها على مدى أربع سنوات ما بين مايو ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ ومن العجيب أن هذا الرجل تجاهل تماماً ما كان قد ظهر أمام عينيه من نتائج سياساته السيئة و على سبيل المثال فقد تسببت المحاكم المختلطة في تكبيل مصر بالديون ثم التحكيم ثم الاحتلال، وتمَّ هذا كله بأسرع مما يتخيله أيُّ سياسي، لكن نوبار باشا لم يكن واعياً لتطور السياسات المالية على هذا النحو، شأنه في هذا شأن كل سياسي ينشغل بمصلحته الخاصة فلا يفهم بإخلاص ولا انتماء مجريات الأمور في السياسات العامة والاقتصاد السياسي.

قصيدة الشاعر البارودي في هجاء نوبار باشا

لا جدال في أن قصيدة البارودي في هجاء نوبار باشا من أبلغ قصائد الهجاء في الأدب العربي الحديث ، وهي قصيدة سلسلة الألفاظ بديعة المعاني تنطق بقدرات البارودي غير المحدودة على صياغة أصعب المعاني بأسهل الألفاظ ويبدأها البارودي بالقول بأن وصال نوبار باشا هجر ، وهجره وصال ، وهو لهذا يطلب منه مزيداً من الكراهية حتى إن كان هذا يُبعده عن أمانيه، فهو لا يُرحب باللقبا ولا جمع الشمل إذا تحققا بواسطة نوبار باشا ، وهو يصف نوبار باشا بأنه متلّون، مخاتل، يُخفي كثيراً مما لا ينبغي إخفاؤه.

وصالِك لي هَجْرٌ ، وهَجْرُك لي وَصْلٌ / فزدني صدوداً ما استطعت ، ولا تأل

إذا كان قُرْبِي مِنْكَ بَعْداً عن المني / فلا حُمَتِ اللُّقْيا ، ولا اجْتَمَعَ الشَّمْلُ

وكيفَ أودُّ القُرْبَ مِنْ متلّونٍ / كثير خبايا الصدر ، شيمته الختلُ

كما أن البارودي يتمنى أن تباعد بينهما الأيام، فالخبائثة في نوبار باشا كفيلة بأن تُنجس الماء حتى يصعبُ تطهيره ثانية.

فليت الذي بيني وبينك ينتهي/ إلى حيث لا طمّح يرفأ ولا أثل
خبثت ، فلو طهّرت بالماء لا كتسى/ بك الماء خبثاً لا يحلّ به العسل
ويُعاود البارودي باشا تلخيص وصفه لنوبار باشا ، فهو بلا ذمة ولا عهد، ورأيه سيء، وعقله
كذلك وهو ينسبُ إلى وجه نوبار باشا كلّ الرزايا من اسوداد الأيام، وانعدام الفضل وهو يرى أن
وجهه منحوس وعقله مختلّ وقلبه مخاتل وكعبه سيء السمعة.

فوجهك منحوسٌ ، وكعبك سافلٌ/ وقلبك مدغولٌ ، وعقلك مختلّ
بك اسودتِ الأيام بعد ضيائها/ وأصبح نادي الفضل ليس به أهل
ويصل البارودي باشا إلى أن يذم الزمن الذي يكون فيه شخص كنوبار باشا ذا شأن فيه بينما
هو يراه رسول النكبات المبشر بها كما أنه أصل الخبيات:

فلو لم تكن في الدهر ما انقضتْ حادثٌ/ بقومٍ ، ولا زلتْ بذي أملٍ نعلُ
فما نكبةٌ إلا وأنت رسولها / ولا خيبةٌ إلا وأنت لها أصلُ
أذمُّ زماناً أنت فيه ، وبلدةٌ/ طلعتْ عليها ، إنه زمنٌ وغلُ
وهو يصل في وصفه إلى اعتقاده في أن شخصية نوبارحافلة بالمخازي الكفيلة بمنع إشراق
النجوم.

دَمَامُكَ مَخْفُورٌ ، وعهدك ضائعٌ/ ورأيك مأفونٌ ، وعقلك مختلّ
مخازٍ لو ان النجمَ حُمِلَ بَعْضُهَا/ لعاجله من دون إشراقه أَفْلُ
وهو يرى أن لا أمل في الثقة بنوبار على الإطلاق، وأن غاية الأمل هي أن ينقطع الحبل الذي
يصلهما:

فسرُ غير مأسوفٍ عليك ، ف/ قُصارى ذميم العهد أن يقطع الحبلُ

المحتويات

٥.....	هذا الكتاب
٩.....	الباب الأول : الزعامة
٩.....	الفصل الأول : مصطفى كامل الروح التي استيقظت بها مصر
٩.....	الجانب الجوهري في تكوين مصطفى كامل
٩.....	سبب وفاته المبكرة
٩.....	موقعه العمري بين أنداده من الزعماء التاريخيين
١٠.....	الحلم والواقع
١٠.....	قدرته على التعبير
١٠.....	داعية قبل أن يكون زعيماً
١١.....	التحمس بعيداً عن التخوين
١١.....	روافد فكره
١٢.....	الحياة جهاد وحق في الوقت نفسه
١٢.....	لم تقهره القوالب
١٢.....	الاستقلال بعيداً عن التحالفات الأجنبية
١٢.....	الدولة العثمانية تعرف الحقيقة
١٣.....	أكثر زعاماتنا حظاً مع التاريخ
١٣.....	كان طريقه سهل الوصف والرصف
١٤.....	المقارنة بين كتابة الرافي عنه وكتابتنا عن النحاس
١٤.....	دوره فيما حققته الحركة الوطنية من النجاح
١٤.....	نماذج لنجاحاته المبكرة
١٥.....	صرف النظر عن التعويل على الفرنسيين
١٥.....	صورة مصطفى كامل في كتابات المؤرخين
١٦.....	نموذج الجمع بين الوطني والوفد
١٦.....	نموذج البدء بالحزب الوطني والانتهاه بالدستورين
١٧.....	ذكاء مصطفى كامل في التعامل مع مكائد الإنجليز
١٨.....	التعالي غير المبرر من اليسار على مصطفى كامل
١٨.....	موقف الوفديين منه لا يعدو أن يكون رد فعل
١٩.....	رأي مدرسة التاريخ المادي
١٩.....	تأريخ الرافي لحقبة من الحركة الوطنية من خلال كتابه عنه
٢١.....	الفصل الثاني : محمد فريد
٢١.....	العطاء الذي لم يتوقف
٢١.....	زعيم مجمع عليه
٢١.....	نموذج للقدوة ، و نموذج للعظة
٢٢.....	تعامله الذكي مع خلافة مصطفى كامل
٢٢.....	استعانته بالشيخ جاويش وبعلي فهمي شقيق مصطفى كامل

٢٢	مقارنته بمصطفى كامل في الحماس
٢٢	فضل محمد فريد على حركة الوفد المصري
٢٣	الفضل الأهم هو الحفاظ على الكوادر الوطنية بنقاء نادر
٢٣	مطالبته المبكرة بما يسمى العصيان السياسي
٢٣	تشجيع النقابات العمالية والمظاهرات الشعبية المنظمة
٢٤	هو صاحب فكرة التوكيلات التي قامت عليها مشروعية الوفد
٢٤	المدارس الليلية
٢٤	مقدمته لديوان وطنيتي
٢٤	عاد ليسجن
٢٤	من رسالة محمد فريد لابنته وهو في السجن
٢٥	في المرة التالية فضل النفي
٢٥	سفره الأخير
٢٥	دعوته السياسية
٢٥	إدراكه لفاعلية القوى الاجتماعية
٢٥	كيف بلور محمد فريد أهدافه الأساسية
٢٦	فكره الاجتماعي والاقتصادي
٢٦	قيمه كمؤرخ
٢٦	مؤلفاته
٢٦	وصيته
٢٧	وفاته وجنازته
٢٧	قصة تضحيات الحاج خليل عفيفي
٢٧	تصوير صبري أبو المجد لتضحيته
٢٨	الباب الثاني : الصالون
٢٨	الفصل الثالث: الأميرة نازلي فاضل
٢٨	الأم البيولوجية لثورة ١٩١٩
٢٨	الدور الحضاري الذي لعبته
٢٨	ثورة ١٩١٩ ليست إلا دولة تجديد للأمة الإسلامية
٢٩	أثرها الحقيقي في التمهيد لثورة ١٩١٩
٢٩	التعريف بوالدها و نشأتها
٣٠	انتقال والدها إلي الأستانة ومكانته في الدولة العثمانية
٣٠	رسالة والدها إلى السلطان عبد العزيز
٣٠	زواجها الأول
٣٠	رسالتها للسلطان عبد الحميد
٣١	فضل السلطان عبد الحميد في استحواذها على مكانتها
٣١	علاقتها بأسرتها العائلة المالكة في مصر
٣١	دعمها لثورة عرابي
٣٢	نفوذها في عهد الخديو عباس
٣٢	رواية عثمان أمين عن علاقتها بالإمام الشيخ محمد عبده
٣٢	رواية الشيخ مصطفى عبد الرازق
٣٢	روايتان للأستاذ أبو القاسم كرو
٣٢	علاقتها بسعد زغلول و قاسم أمين

رواية الأستاذ مصطفى أمين	٣٣
محمد فريد يؤكد دورها في تركية سعد زغلول باشا	٣٣
ثقافتها و شخصيتها الفريدة	٣٣
ثناء الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق	٣٣
تأثر سعد زغلول باشا بوفاتها	٣٣
أثرها في فكر قاسم أمين	٣٣
تمويلها نشر كتاب «المصريون» الذي ألفه قاسم أمين	٣٤
قصة زواجها الثاني في تونس	٣٤
دورها في تونس	٣٤
دورها في دعم جهاد اللبيين ضد الطليان	٣٤
الازدواجية المفهومة في حديث الفرنسيين عنها	٣٥
صورتها في مذكرات محمد فريد	٣٥
الباب الثالث : الرؤساء	٣٦
الفصل الرابع : محمود سامي البارودي	٣٦
الفارس الذي أضع فرصة نشأة دولة بارودية	٣٦
أول مصري يصل إلى رئاسة النظار	٣٦
مكانته العسكرية	٣٦
مكانته الشعرية	٣٦
مكانته الأدبية ومقارنته بعبد الله فكري باشا	٣٧
قيمه الفكرية ومقارنته بالأفغاني	٣٧
الدولة التي فرط البارودي في إنشائها	٣٧
كان بإمكانه أن يحاور أوروبا	٣٨
الموقف المتوقع من العثمانيين	٣٨
وعيه الاستراتيجي أقل من وعيه الفكري	٣٨
المتغيرات التي أهمل البارودي تقدير خطورتها	٣٩
البارودي تجاهل الطموح الفطري	٣٩
الفصل الخامس محمد شريف باشا	٤٠
أبو الدستور	٤٠
رمزيته	٤٠
لقبه واسمه	٤٠
نشأته	٤١
مناصبه العليا	٤١
مناصبه الوزارية	٤٢
وصوله للمكانة الأولى بين رجال الدولة	٤٢
المقومات الفريدة لأهميته السياسية	٤٢
صفاته المثلى وأخلاقه الرفيعة	٤٣
قدرته على استيعاب معاصريه	٤٣
إنجازاته التنفيذية	٤٤
دوره في بداية عهد الخديو توفيق	٤٤
مطالبته بإصدار الدستور وقانون الانتخاب	٤٤

٤٥	الإحياء بفض البرلمان
٤٥	خلافه مع الخديو توفيق واستقالته
٤٦	تشكيل وزارة الخديو توفيق الثانية
٤٦	ظهور استبداد الخديو توفيق
٤٦	وزارة رياض باشا
٤٦	مواجهة عرابي للخديو
٤٧	تكليفه بتشكيل الوزارة وتمنعه
٤٧	نصيحة شريف باشا للعسكريين بالبعد عن العسكرة
٤٧	تأليف وزارته الثالثة
٤٨	الإنجاز الديموقراطي في وزارته الثالثة
٤٨	إجراء الانتخابات و انعقاد البرلمان
٤٨	كلمته في عرض مشروع الدستور
٤٨	آماله في تقدير النواب للمسئولية
٤٩	كيف نشأ الخلاف بين شريف باشا و الحركة العرابية
٤٩	استفزاز بريطانيا وفرنسا للوطنيين
٥٠	السياسة بتبينون الحقيقة لكنهم يبقون مختلفين
٥٠	حكمة شريف باشا و طموح البارودي
٥٠	العرابيون و البارودي يتشبثون بالاندفاع
٥٠	وزارة البارودي و الاحتلال
٥٠	رؤاسته الوزارة الرابعة
٥١	دموعه حين رأى مظاهر الاحتلال
٥١	كتاب تأليف وزارته الرابعة
٥١	تشكيل وزارته الرابعة من ٢١ أغسطس ١٨٨٢ - ١٠ يناير ١٨٨٤
٥٢	أمله في أن ينتهي الاحتلال سريعا
٥٢	معارضته في خضوع الوزراء للمعتمد البريطاني
٥٢	استقالته النهائية المسببة
٥٢	اعتزاله السياسة
٥٣	عائلته
٥٣	وفاته
٥٣	تكريم ذكراه
٥٤	الفصل السادس : مصطفى رياض باشا
٥٤	الذي كرهه الفرنسيون فكروهوا فيه المصريين
٥٤	اشتراكه في السعي لعزل الخديو إسماعيل
٥٤	محدودية رؤيته تجاه المؤامرة البريطانية
٥٥	كان يرى الأمور من منظار بيروقراطي
٥٥	مكانته في تاريخ حقبته
٥٥	مقارنته بروساء الوزراء في حقبته
٥٦	مقارنة رياض باشا بعلي مبارك باشا
٥٦	إخلاصه لمصر
٥٦	علاقته بالفكر والفن و حظه من الاستبداد
٥٧	نسبه ومعاناته من التعليقات المتعالمة
٥٧	بداياته الوظيفية

٥٨.....	عمله الموسيقي
٥٨.....	الوظائف العليا التي تولاها مبكرا
٥٨.....	مع الخديو إسماعيل
٥٨.....	المناصب الوزارية
٥٩.....	النفى الاختياري
٥٩.....	في النظام الوزاري الحديث
٥٩.....	أولى وزارات رياض باشا
٥٩.....	تنفيذه الناجح للسياسات الانكماشية
٦٠.....	وزاراته الثانية والثالثة
٦٠.....	إيجابيات مصطفى رياض باشا
٦٠.....	التعليم الوطني
٦٠.....	مجده في دار الكتب القومية
٦٠.....	تمكينه للأفغاني و محمد عبده
٦٠.....	إعادة تنظيم المالية المصرية
٦١.....	الإعلام والثقافة
٦١.....	سعيه في تشكل طبقة متوسطة مصرية
٦١.....	إنشاء المحاكم والسكة الحديد
٦١.....	مع الزمن أصبح الأول بروتوكوليا ومعنويا
٦١.....	وفاته
٦٢.....	الفصل السابع : مصطفى فهمي باشا
٦٢.....	رئيس الوزراء الإنجليزي في القاهرة
٦٢.....	التفريق بينه وبين المعماري العظيم الذي سمي باسمه
٦٢.....	نشأته وأصل عائلته
٦٢.....	استشهاد والده
٦٢.....	تعليمه تدرجه في المناصب الإدارية
٦٣.....	تركيب سكة حديد السودان وترقيته لرتبة الفريق
٦٣.....	محافظا ووزيرا
٦٣.....	أبرز شخصية إدارية في عصر الاحتلال
٦٣.....	هل كان انجليزيا صرفا
٦٣.....	تاريخه مع المسئوليات الوزارية
٦٤.....	وصوله لرئاسة الوزارة
٦٤.....	ابتعاده عن الوزارة
٦٥.....	عودته ثم رئاسته
٦٥.....	الرقم القياسي للبقاء في الوزارة
٦٥.....	ربطه بين عهدي توفيق وابنه عباس حلمي
٦٥.....	التفريق بين وزارته الثلاث
٦٦.....	تفسير الراجعي لعودة مصطفى فهمي لرئاسة الوزارة
٦٦.....	تفويضه نائبا للخديو
٦٧.....	وزارته الأولى من ١٤ مايو ١٨٩١ - ١٧ يناير ١٨٩٢
٦٧.....	وزارته الثانية من ١٧ يناير ١٨٩٢ - ١٥ يناير ١٨٩٣
٦٧.....	وزارته الثالثة من ١٢ نوفمبر ١٨٩٥ - ١١ نوفمبر ١٩٠٨
٦٧.....	توليه ست وزارات من الوزارات الموجودة في عصره

٦٨.....	الاحداث السياسية التي شهدت وزارته الطويلة.....
٦٨.....	نجلزة منصب النائب العام.....
٦٨.....	غزارة إنجازاته التنفيذية.....
٦٨.....	أبرز الخسائر في عهده : بيع البواخر الخديوية.....
٦٩.....	بيع أملاك الدائرة السنية.....
٦٩.....	إنشاء البنك الأهلي.....
٦٩.....	تركيا تنقذ مصر من بيع سكك حديد السودان.....
٦٩.....	بناته.....
٦٩.....	علاقة سعد زغلول باشا بحميه مصطفى فهمي باشا.....
٦٩.....	رؤاسته للمؤتمر القبطي.....
٦٩.....	وفاته.....
٧٠.....	الفصل الثامن : إسماعيل راغب باشا
٧٠.....	أول محاسب مصري وأول رئيس للبرلمان
٧٠.....	المقارنة بينه وبين نوبار باشا.....
٧٠.....	مقارنته بمن سبقوه إلى رئاسة الوزارة.....
٧١.....	طفولته المثيرة الدالة على العبقرية.....
٧٢.....	مغزى تسميته باسم راغب.....
٧٢.....	اللمعان المبكر في عهد محمد على باشا.....
٧٢.....	نموذج لآليات الصعود في الحضارة الإسلامية.....
٧٣.....	اعتزاله في عهد عباس.....
٧٣.....	مسئوليته الوزارية قبل نشأة النظام الوزاري.....
٧٤.....	دوره في الحركة الوطنية والثورة العرابية.....
٧٤.....	دوره في تطوير السلطة التشريعية.....
٧٤.....	موقفه المتتاليان من العرابيين.....
٧٦.....	الفصل التاسع : فخري باشا
٧٦.....	أول الرموز المجهولة للاستقلال المصري في مواجهة الانجليز
٧٦.....	رئيس الوزراء الذي أقاله لورد كرومر بعد ثلاثة أيام فقط.....
٧٦.....	تكوينه ومكانته بين أسلافه.....
٧٧.....	مكانته المتقدمة في عصره.....
٧٧.....	مآثره في وزارة المعارف ومبانيها.....
٧٧.....	إنجازه الذكي في تشجيع تعليم البنات.....
٧٧.....	اهتمامه بمدارس إعداد المعلمين.....
٧٨.....	المؤسسات العلمية.....
٧٨.....	إنجازاته في مجال الأشغال العامة.....
٧٨.....	إنجازاته في مجال المباني.....
٧٨.....	في الحقانية.....
٧٨.....	نشأته وتعليمه.....
٧٨.....	أبناؤه.....
٧٨.....	تعليمه وبعثته.....
٧٩.....	صعوده الوظيفي.....
٧٩.....	تولييه الوزارة.....

٧٩.....	رئاسة بنك مينا البصل
٧٩.....	عودته للوزارة بعد الثورة العراقية
٨٠.....	إسناد رئاسة الوزارة إليه
٨٠.....	عودته للوزارة للمرة الأخيرة
٨٠.....	وفاته
٨١.....	الفصل العاشر: بطرس غالي
٨١.....	الباشا الصعيدي الذي لم يدرك الفرق بين الزيادة والسيادة
٨١.....	وجه المفارقة في سمعته السياسية
٨١.....	نشأته وتعليمه
٨١.....	مدرسة حارة السقاين ثم مدرسة الامراء
٨٢.....	نيله دبلوم الترجمة وبداية صعوده
٨٢.....	تعرفه بالسير ريفرس ولسن الوزير الإنجليزي
٨٢.....	دوره في عهد الخديو توفيق
٨٣.....	دوره بعد فشل الثورة العراقية
٨٣.....	دوره في معاونة محمد قذافي باشا
٨٣.....	في وكالة نظارة الحقانية
٨٣.....	إنشاء المجلس الملي
٨٣.....	قرار عزل البابا كيرلس الخامس
٨٣.....	اختياره للوزارة في عهد الخديو عباس حلمي
٨٤.....	استمراره في وزارة رياض
٨٤.....	عمله الأشهر كوزير للخارجية و رياسته للوزارة
٨٤.....	صعوده لرئاسة الوزارة
٨٤.....	مكانة وزارته في التاريخ الحديث
٨٥.....	علاقته بالخديو عباس حلمي الثاني
٨٥.....	اتفاقية السودان بداية مخاصمته الكبرى للمشاعر الوطنية
٨٥.....	رئاسته لمحكمة دنشواي وإعدامه لمواطنيه
٨٦.....	البرلمان يعارضه في مد امتياز قناة السويس
٨٦.....	أول اغتيال سياسي في مصر الحديثة
٨٧.....	الخديو عباس يزوره في المستشفى
٨٧.....	جنازته
٨٧.....	الحزب الوطني ينفي عن كيانه المشاركة في اغتياله
٨٨.....	قرار النائب العام بإحالة الورداني وثمانية من زملائه إلي قاضي الإحالة
٨٨.....	قرار قاضي الإحالة يكتفي بإحالة الفاعل وحد للجنايات
٨٨.....	وصف دقيق لجلسات محاكمة إبراهيم الورداني المتهم بقتله
٨٩.....	دوره في المجتمع القبطي
٨٩.....	الجامعة الأهلية افتتحت في عهده
٨٩.....	ضريحه الخاص في كنيسته الخاصة
٩٠.....	صورته في أدبيات التاريخ المعاصر
٩١.....	الفصل الحادي عشر : نوبار باشا
٩١.....	الترجمان الذي أفلس الخديو إسماعيل و شوّه القائد إبراهيم
٩١.....	جوهر الحقيقة في في رئاسته أول وزارة

- ٩٢..... حب الإثراء من المال العام
- ٩٣..... مقارنة بشريف باشا
- ٩٣..... مقارنة برياض باشا
- ٩٣..... مقارنة براغب باشا
- ٩٤..... مقارنة بعلي مبارك باشا
- ٩٤..... لم يكن عميلاً ولا عديم الوطنية
- ٩٥..... نشأته وتعليمه
- ٩٦..... إسهام العائلة التي أصهر لها في صعوده
- ٩٦..... التمييز بينه وبين ابنه
- ٩٧..... ابنه تولى زعامة الأرمن وهو مصري الجنسية حتى موته
- ٩٧..... لماذا تخطى المدرسة الأرمنية في القاهرة فيهما ؟
- ٩٧..... مكانته في عهد عباس الأول
- ٩٨..... مكانته في عهد محمد سعيد باشا
- ٩٨..... مكانته في عهد الخديو إسماعيل
- ٩٨..... فصله من الخدمة و خروجه من مصر
- ٩٨..... ترشيحه حاكماً لبلغاريا
- ٩٩..... وزارته الثالثة
- ٩٩..... تدميره للقضاء الوطني
- ١٠٠..... بقية إنجازاته السلبيه
- ١٠١..... نزعتة الطائفية وتعصبه المقيت للأرمن
- ١٠٢..... قصيدة الشاعر البارودي في هجاء نوبار باشا

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN : 0000 0001 2122 604X

**Toward The National Renaissance
1866 - 1910**





الدكتور محمد الجوّادى

هذا كتاب في تاريخ الوطنية كتبناه بأسلوب أقرب إلى أن يكون كذلك كتابا في ثلاثة ميادين أخرى : في تاريخ العلم ، وفي كيمياء الحضارة ، وفي فيزيقا التقدم ، وليس هذا من قبيل الفخر بقدر ما هو اعتذار عن المقاربات المتباينة (ولا نقول المتناقضة) في الكتاب ما بين حماسة وخطابة، وشاعرية وقضاء، وسرد وجرّد ، وفخر وندم ، وألم وأمل ، وتدقيق وتحقيق ، واسترسال وترميز ، ذلك أنه تعبير مكثف ومركز عن قراءة وعن رؤية وعن أمنية وعن تجربة . نستهل هذا الكتاب بفصلين عن الزعيمين الوطنيين مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم بدراسة عن ننفرد بتسميتها الأم البيولوجية لثورة 1919 الأميرة نازلي فاضل ثم نتناول في ثمانية فصول متوالية دراسة حياة رؤساء الوزارة الثمانية الأوائل الذين تولوا هذا المنصب على مدى ثلاثة عقود.

- محمود سامي البارودي باشا
- محمد شريف باشا
- مصطفى رياض باشا
- مصطفى فهمي باشا
- إسماعيل راجب باشا
- حسين فخري باشا
- بطرس غالي باشا
- نوبار باشا

